مجلة جامعة الملك سعود، م٤، الآداب (٢)، ص ص ٥٥٧-٥٩٠ (١٤١٢هـ /١٩٩٢م).

لودوڤيكو دي ڤارتيما «الحاج يونس المصري»: الرحالة الإيطالي والعميل البرتغالي ورحلته إلى الأماكن المقدسة سنة ١٥٠٣م

عبدالرحمن عبدالله الشيخ

أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(ورد بتاريخ ٢٤/٤/١٤١٠هـ، وقُبِلَ للنشر بتاريخ ٦/٨/١٤١١هـ)

ملخص البحث. قام ڤارتيما، الإيطالي النشأة، برحلة حول العالم (١٥٠٣ ـ ١٥٠٨م) وصل فيها إلى الهند وشرق آسيا، وعاد إلى لشبونة، فروما، مارًّا بسواحل شرق أفريقيا، فرأس الرجاء الصالح، فالمحيط الأطلسي، وتوضح الأدلة الدامغة أنه في رحلته هذه كان يعمل لحساب البرتغال.

ويهمنا في رحلته هذه زيارته للأماكن المقدسة الإسلامية، التي وصلها سنة ١٥٠٣م باعتباره الحاج يونس المصري، أو يونس المملوك المصري، والظروف التاريخية في أوربا البحر المتوسط، التي أثرت في أفكاره الواردة بالرحلة، وتضيف هذه الدراسة كثيرًا من المعارف عن هذا الرحالة، لم تكن معروفة من قبل في الدراسات المنشورة بالعربية عنه. وما كان يتأتّى هذا إلا بالقراءة المتأنية لرحلاته العربية والفارسية والهندية والأفريقية، وبالرجوع إلى المصادر التاريخية الأوربية عن فترته الزمنية.

رغم أن المهتمين بتاريخ الرحلات والرحالة في شبه الجزيرة العربية، قد احتفوا احتفاءً شديدًا بلودوڤيكو دي ڤارتيما لأنه أول أوربي قدم وصفًا مكتوبًا لمكة المكرمة والحج الإسلامي، إلا أنهم لم يقدموا لنا عن حياته إلا النزر اليسير فها هو المستشرق بادجر George Percy Badger يذكر أنه لا يعرف عن حياة ڤارتيما إلاَّ قليلاً جدًّا، من بينه ما ذكره هو — أي ڤارتيما — عن نفسه. وقد أكد بادجر ذلك بعد أن أورد المراجع الإنجليزية والإيطالية

والفرنسية التي يحتمل وجود شيء عن رحالتنا فيها، مؤكدًا أنه لم يجد فيها شيئًا ذا بال. ففي موسوعة التراجم العالمية في القديم والحديث، المطبوعة في باريس سنة ١٨٢٧م *Biographie Universelle, Ancienne et Moderne,* (Paris, 1927) لم يجد بادجر إلاَّ نصًّا قصيرًا عن ڤارتيما Vartomanus نعـرف منـه أنه رحالة إيطالي قام برحلة في القرن السادس عشر (هكذا دون تحديد للسنـة أو السنـوات) وأن هذه الـرحلة مهمـة جدًّا للمشتغلين بتاريخ الجغرافيا، وللمؤرخين بشكل عام، وأنها إضافة حقة لجهود الرحالة في تعريفنا بالعالم من حولنا.(١) ويعجب بادجـر من أن المـراجع التي كتبها المؤلفون الإيطاليون قد أغفلت ذكر ڤارتيما أو كادت، فالمؤلف الإيطالي زورلا Zurla لم يذكـره ضمن أشهر الرحالة الإيطاليين في كتابه الذي نشر في البندقية سنة ١٨١٨م *Di Marco Polo e deglia altri viaggiatori pia illustri,* Dissertazione da P. Ab p. Zuria, 2 vols (Venezia, 1818). أما المؤرخ الإيطالي فانتوزي Fantuzzi فلم يتعرض لڤارتيما إلا من خلال أسطر قلائل شكى في مطلعها من قلة المعلومات عنه، وأنهاها بالتشكك في عودته إلى إيطاليا.(٢)

---

(١) النص الفرنسي الذي أورده بادجر نقلاً عن الموسوعة الفرنسية هو:

Vartomanus, gentlehomme Bolonais, et patrice Romain, fut un voyageur celebre dans le XVI siecle. Il est presque inconnu dans le naitre, parce que l'abbé Prévost, et ceux qui ont écrit l'histoire des voyageurs, ont négligé de parler du sien quoiqu'il soit un des plus importants pour l'histoire en général."

(٢) اعتمدنا اعتمادًا كبيرًا في تغطية هذه الفقرة على الدراسة المطولة (١٢٣ صفحة) التي كتبها بادجر، المستشرق المعروف، والذي يجيد العربية، وبعضًا من اللغات الشرقية، وقد أورد بادجر في دراسته هذه بعض النصوص الفرنسية التي تتناول حياة ڤارتيما، منها النص الذي أوردناه في التعليقة السابقة، وقد وردت دراسة بادجر هذه والتي كتبها سنة ١٨٦٣م، في مقدمة الطبعة التي نعتمد عليها في بحثنا هذا، والتي ترجمها للإنجليزية جون ونتر جونز:

Ludovico Di Varthema, *The Travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta, Arabia Felix, Persia, India and Ethiopia A. D. 1503-1508.* Translated from the original Italian edition of 1510 with a preface by John Winter Jones, with notes and introduction by George Percy Badger (New York: Burt Frankin, 1863), pp. I-XXI.

والـواقع أن إهمال المؤرخين الإيطاليين لڤارتيما عند حديثهم عن رجالات وطنهم، ليس أمرًا مستغربًا، فالرجل يكاد يكون غير إيطالي، كما سندلل في هذه الصفحات. ويشير المستشرق بادجر، وهو عالم لغويات بارع إلى مسألة مهمة سنحاول تفسيرها عند الحديث عن دوافع هذا الرحالة، وهذه المسألة متعلقة باختلاف الكتاب في كتابة اسم ڤارتيما فقد كتبه فانتوزي المؤرخ الإيطالي سالف الذكر هكذا: بارتيما Bartema أي استبدل حرف (B) بحرف (V)، وقد وقع هذا الاختلاف في بعض طبعات الرحلة. ويعلل بادجر ذلك بأن الـبرتغاليين والإسبان ينطقون حرفي (V) و (B) على نحو تبادلي، أي يحلون أحدهما محل الآخر. فما الذي يجعل الكتاب، وحتى الإيطاليين منهم، يكتبون اسم ڤارتيما على النحو البرتغالي أو الإسباني؟ والأكثر من هذا أن جون ونتر جونز John Winter Jones الذي قام بالـترجمـة الكـاملة لرحلات ڤارتيما للإنجليزية، قد أورد أثناء سرده لطبعات رحلة ڤارتيما باللغات المختلفة عنوان كتاب فرنسي نشر سنة ١٥٥٦م نفهم من عنوانه أنه شمل جانبًا من رحلة ڤارتيما أدرج ضمن مجموعة رحلات الرحالة البرتغاليين، وعنوان هذا العمل كما أورده جون ونتر جونز هو (وصف أفريقيا، ثالث أجزاء العالم) والجزء الثاني من العمل نفسه يشتمل على رحلات الرحالة البرتغاليين، وأدرج ڤارتيما بينهم.[٣]

---

(٣) Varthema, preface, of Jones.

ونورد فيما يلي نص ما ذكره جونز عن هذا الكتاب الذي ضم حديثًا عن ڤارتيما:

"No separate translation into French has been published of this work, but a French translation is printed in the "Description de l'Afrique, tierce partie du monde contenant ses royaumes, regions, villes, cités, chataux et forteresses: îles, fleuves, animaux tant aquatiques que terrestres ..., Escrite de notre temps par Jean Leon, l'Africain" Tome Second: contenant les Navigations des capitains Portugalais et autres faites audit pais, jusqu'aux Indes tant orientales que occidentales, parties de Perse, Arabie Hereuse, pierreuse et deserte... l'assiètte desdits pais, îles, royaumes et empires: les figures, habits, religion et façon de faire des habitants et autres singularités cy devant incognenes", Lyon, 1556.

والجدير بالذكر أن المقصود بليو الأفريقي هو الجغرافي العربي المسلم، الحسن بن الوزان، الذي وُلد في غرناطة من والدين مغربيين سنة ١٤٩٣م، وغادر والداه غرناطة إلى فاس، وكان رحالة نابهًا إذ زار شمال أفريقيا والسودان الغربي، وقد وقع الحسن في الأسر سنة ١٥١٨م ضمن ركاب سفينة عربية =

ألا يحمل إدراج رحلة ڤارتيما ضمن رحلات الرحالة البرتغاليين، في مطبوع فرنسي صادر سنة ١٥٥٦م أية دلالة؟ ألا يدل على أن كثيرين كانوا يعتبرونه برتغاليًّا؟ والواقع أن ڤارتيما ليس فيه من إيطاليا شيء سوى أنها موضع ميلاده، ومصدر لغته الإيطالية الركيكة ركاكة شديدة،(٤) التي تجلّت في كتابه الذي أعيا محققيه ومترجميه، بسبب عدم مراعاته لقواعد النحو في اللغة الإيطالية، بل وعدم تقيده بلهجة إيطالية واحدة. وفيما عدا ذلك فالرجل برتغالي الهوى، قام برحلته فيما أرى لصالح البرتغال، وبتمويل برتغالي، بحيث لا نبعد كثيراً عن الصواب إن قلنا إنه رحالة برتغالي، فهو — إذن — لا يختلف كثيراً عن كرستوفر كولومبس الذي وإن كان إسبانيًّا إلا أنه من أصول إيطالية. ومع هذا فقد اصطلح الباحثون على اعتباره رحالة إسبانيا. وللتدليل على هذا نذكر بالإضافة للأدلة السابقة مقتطفات من رحلة ڤارتيما تؤكد ولاءه للملك البرتغالي.

عندما كان ڤارتيما في مكة المكرمة في سنة ١٥٠٣م دار بينه وبين رجل من أهلها هذا الحوار نورده مترجمًا كما أورده في الفقرة التالية: «عندما كنتُ ذاهبًا لاستبضاع بعض الأشياء لرئيس القافلة، تعرف عليّ أحد المسلمين، إذ تفرس في وجهي وقال لي: (من أي البلاد أنت؟) فأجبته: (إني مسلم.) فقال لي: (أنت كذاب..!)» وبعد أن أقنعه ڤارتيما بإسلامه، شرع يستدرجه. يقول ڤارتيما: «وقد شرعتُ في استدراجه قائلاً: هل هذه هي مكة ذات الصيت الذائع عبر العالم كله..؟ فأين المجوهرات..؟ وأين البهارات..؟.. لقد ألقيتُ عليه هذا السؤال فقط.. ولم أشأ أن أسأله ما إذا كان ملك البرتغال هو السبب، فقد كان المليك البرتغالي هو سيد البحر المحيط، وسيد الخلجان الفارسية والعربية. وعندئذٍ

= استولى عليها القراصنة النصارى في البحر المتوسط، وحمله مختطفوه إلى البابا ليو العاشر الذي كلّفه بإعداد كتاب عن أفريقيا، نُشِر بالإيطالية سنة ١٥٥٠م. وقد طبعت جامعة الإمام محمد بن سعود نصًّا عربيًّا لهذه الرحلة. انظر على سبيل المثال:

شوقي عطا الله الجمل، *تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها* (القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م)، ص ص ٦٢، ٦٣.

(٤) ورغم ذلك عاد جونز وقال إنه حافظ على أسلوبه المقتضب الجذاب.

بدأ يخبرني بالتـدريج . . وعنـدما قال لي إن ملك البرتغال هو السبب، تظاهرتُ بالحزن العميق وأسلتُ فيضًا من السباب لهذا الملك البرتغالي مخافة أن يكتشف سعادتي . . . » .(٥)

وفي عدن اُتهم ڤارتيما بالتجسس لصـالح البرتغاليين وذلك كما يوضحه النص التالي: « . . . وفي اليوم الثالث بعد القبض علينا، أقبل أربعون أو ستون شخصًا من المسلمين — كان البرتغاليون قد استولوا على سفنهم — يهرولون نحو القصر وكان هؤلاء المهرولون قد هربـوا من قبضـة الـبرتغاليين بأن وصلوا سباحة إلى قرب الشاطىء، وقد ذكر هؤلاء الناجون أننا قد قَدِمْنا إلى عدن كجواسيس، وبسبب هذه الفرية، أقبلوا نحو القصر وهم في حالة هياج هائل وأسلحتهم في أيديهم — لقتلنا . . ولكن الحراس أسرعوا بإغلاق الأبواب . . . » .(٦)

ولننتقل لبعض ما ذكره عند الحديث عن بلاد الهند، فهو يتناول علاقات الكيانات والدول الهندية، بالبرتغال فقط، دون غيرها من الدول الأوربية، فنجده يقول على سبيل المثال عند حديثه عن المقاطعات الهندية سنتاكولا، وأونور، ومانجولور، ما ترجمته: « . . . وقد غادرنا سنتاكولا ووصلنا إلى أونور بعد يومين من مغادرة المدينة السابقة. وملك أونور Onor الوثني تابع لملك نارسنجا، وهو تابع مخلص، ويمتلك سبع سفن أو ثماني لا تكف عن الإبحار حول المنطقة وهو صديق حميم لملك البرتغال . . . »(٧) وعند حديثه في فصل آخر عن كانونور الهندية، نجده يقول ما ترجمته: «كانونور مدينة كبيرة وجميلة . . . وحاكمها صديق كبير لملك البرتغال . . . » لكنه يعود فيقول: « . . . وسأحكي لكم في الوقت المناسب عن الجهود التي بذلها ملك كانونور ضد البرتغاليين . . . »(٨) وعند حديثه عن مملكة بِيَاثَاجَار الهندية يقول: «وملك هذه البلاد صديق كبير للمسيحيين، خاصة ملك البرتغال، فهو لا

---

(٥) Varthema, p. 49.

(٦) Ibid., p. 61.

(٧) Ibid., p. 121.

(٨) Ibid., pp. 124-25.

يعرف كثيراً عن مسيحيين آخرين، وعندما يصل البرتغاليون لبلاده يستقبلهم بترحاب.»[٩] ويقول ڤارتيما استطرادًا عند حديثه عن شرق أفريقيا: «ويبدو لي أن ملك البرتغال — من خلال ما رأيت في الهند وشرق أفريقيا — سيغدو أغنى ملك في العالم إذا أذن الله وواصل انتصاراته. والحقيقة أن ملك البرتغال يستأهل كل خير، ففي الهند — خاصة في ككن — يتحول للمسيحية يوميًّا ما بين عشرة أشخاص واثني عشر شخصًا من الوثنيين والمسلمين، ويتم تعميدهم، فالمسيحية تنتشر يوميًّا بسبب هذا الملك. . . .»[١٠] وقد قدم نائب الملك البرتغالي في الهند براءة (وثيقة) الفروسية لڤارتيما لجهوده.[١١]

وقد يرى المرء أن هذه النصوص ليست دليلاً كافيًا على أن ڤارتيما كان يعمل لحساب البرتغال، باعتبار أن البرتغال كانت هي القوة الأوربية الطاغية في هذه الأنحاء، وباعتبار ڤارتيما مسيحيًّا يبدي ولاء لملك مسيحي، ولا شيء غير ذلك. والواقع أن هذا أمر مستبعد، لأن ڤارتيما قدم تقريرًا برحلته إلى ملك البرتغال، وكان هو (أي ملك البرتغال) أول من سعى ڤارتيما للقائه، وقد استبقاه الملك عدة أيام في بلاطه. يقول ڤارتيما ما ننقله مترجما: «. . . ثم وصلنا إلى جزيرة ترتيرا Tertiera حيث مكثنا فيها يومين، وهذه الجزر عامرة بالثمار والفاكهة، ثم غادرناها متجهين صوب البرتغال، فوصلنا إلى لشبونة، المدينة العظيمة في سبعة أيام. وأتركك لتتصور مدى السعادة التي غمرتني، والفرح الذي شملني عند وصولي لليابسة. ولأن الملك لم يكن في لشبونة، فقد ذهبت للقائه في مدينة ألمادا Almada المقابلة للشبونة. وعندما وصلت إليها ذهبت لتقبيل يد عظمته، وقد أحاطني برعاية فائقة، واستبقاني في بلاطه عدة أيام، ليسمع مني عن أمور الهند. وبعد بضعة أيام أظهرت له براءة الفروسية التي منحني إياها نائبه في الهند، متوسلاً إليه — إذا رغب — أن يعتمدها ويوقعها بيده الكريمة، ويختمها بخاتمه، وعندما رآها ذكر لي أنه يسعده ذلك، وتناول مني الوثيقة

---

(٩) Ibid., p. 131.

(١٠) Ibid., p. 296.

(١١) Ibid., p. 298.

التي خُطت على جلد رقيق، ووقعها بيده ووضع عليها خاتمه، وتم تسجيلها، ومن ثم استأذنتُ عظمته في الرحيل، ووصلتُ إلى مدينة روما.»[١٢]

وهكذا يُنهي ڤارتيما رحلاته في الطبعة التي نعتمد عليها — على الأقل — ولم يحدثنا أبدًا عن أي أمير إيطالي التقى به، أو عرض عليه حصاد جهده، ولم يذكر لنا شيئًا عن أي تكريم لقيه في إيطاليا. كل ما في الأمر أنه ذكر لنا أنه استأذن ملك البرتغال في الذهاب إلى روما، فأذن له، تُرى هل ذهب ڤارتيما إلى روما، ومن ثم إلى غيرها، كجاسوس أو عميل برتغالي، فيكون قد أنهى رحلته كما بدأها؟ الواقع أن هذا هو ما نميل إليه، فالرجل لم يثر ضجة عند وصوله إلى إيطاليا، وقد انقطعت أخباره، حتى أن بعض الباحثين الإيطاليين يتشككون في عودته إلى إيطاليا، كما أهملته كتب التراجم الإيطالية،[١٣] بل لقد أدرجته بعض المراجع في زمرة الرحالة البرتغاليين.[١٤] وافترض الباحث روبن بدول أن ڤارتيما قد يكون قد قُتل بعد عودته إلى إيطاليا، نظرًا لطموحه الشديد، ونص عبارة بدول كما ننقلها عن كتابه المترجم هو: «لقد رجع ڤارتيما إلى روما في شتاء ١٥٠٨م - ١٥٠٩م وظهر كتابه هناك، وقد أهداه إلى دوقة إيطالية، وبعد ذلك لم نسمع عنه شيئًا، وربما يكون قد قتل بسبب طموحاته إلى مستوى أرفع من مستواه.»[١٥]

وليس في الطبعة الممتازة والمحققة لرحلة ڤارتيما، المترجمة للإنجليزية، والتي علَّق عليها — بتعليقات ثرة - المستشرق المشهور بادجر، ما يفيد أن ڤارتيما قد وصف نفسه بأنه «مواطن من روما» رغم أن الباحث بِدْول قرَّر ذلك في كتابه عن الرحالة الغربيين في الجزيرة العربية.[١٦] والواقع أن مثل هذه العبارة قد تكون من إضافة بعض الطابعين أو الناشرين،

---

(١٢) Ibid.

(١٣) Badger, Introduction to the travels... Ibid., p. 298.

(١٤) انظر هذا البحث، ص ص ٢٢٨ - ٢٣٠.

(١٥) روبن بدول، *الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية*، ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض: عبدالله آدم نصيف، ١٩٨٩م)، ص٢٥.

(١٦) بدول، *الرحالة*، ص ص ٢٢ - ٢٤.

خاصة وأنها — أي هذه العبارة — موجودة في مطلع الترجمة الإنجليزية لرحلة ڤارتيما التي شاهدها بِدْول، وقد يكون المقصود هو غلاف الكتاب. وعلى أية حال، فإن ڤارتيما نفسه قد أخبرنا في السطر الأخير من رحلته أنه بعد أن قدم تقريره للملك البرتغالي، اتخذ سبيله إلى روما. وهذه الإشارة، بالإضافة إلى إهدائه الكتاب لدوقة إيطالية، هما أهم إشارتين لڤارتيما عن وطنه أو مسقط رأسه في إيطاليا، وفيما عدا ذلك فالرحلة المطبوعة زاخرة بالدعاء لملك البرتغال، ودراسة مصالح البرتغال، ووصف علاقات الدول والجماعات بالبرتغال، ووصف التشكيلات العسكرية والأسلحة المستخدمة عند الشعوب التي زارها، ووصف القلاع والحصون، . . . كل ذلك لصالح البرتغال. ورغم أن كل المراجع التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة تفيد أن ڤارتيما قد عاد إلى إيطاليا مجهولاً كما خرج منها، بل إن بعض المراجع تشكك في عودته إلى إيطاليا، إلاَّ أن جاكلين بيرين تذكر أن ڤارتيما استقبل استقبالاً رائعًا «فأثابته جامعة البندقية على روايته المدهشة المليئة بالأحداث، واكتسب في روما حماية أسرتي كولونا وسفورزا العظيمتين، وكذلك حماية الكاردينال كارفيجال الذي موَّل ترجمة مؤلفه إلى اللاتينية. . . »[١٧] والواقع أن هذا لو حدث لما أهمله مؤرخو وطنه، ولما حدثنا الباحث بِدْول عن احتمال قتله، وهذا أمر وارد، فالقارىء لرحلة ڤارتيما يلاحظ ولعه الشديد بالحديث عن جاذبيته الجنسية، وولع النساء به، فهو يحدثنا أن زوجة التاجر المكي الذي استضافه لأيام قلائل، وتركه معها، ومع ابنة أختها، راحتا «تنشجان» لفراقه، وتوسلتا له كي لا يرحل، ووعداه بالغنى والثراء، ويفهم الرجال مضمون هذا الكلام إذا قالته امرأة، خاصة إذا «نشجت،» كما يحدثنا ويفيض عن أميرة عشقته، وراحت تتغلغل بيديها في جسده، ولم يُعفها هي الأخرى من «النشيج» عندما رأته عاريًا، وقد أهدى كتابه إلى «السيدة اللامعة الممتازة، كونتسية ألبي، ودوقة تاجياكوزو. . . لودوفيكو البولوني يتمنى لك الصحة فإليك يا من أهديت إليك هذا الكتاب الذي صدرته باسمها، فكان نعم الاستهلال. . . إليك يا أكثر النساء تفردًا وامتيازًا. . . لكن صاحبة النبل مشغولة بزوجها اللورد العظيم. . .

---

(١٧) جاكلين بيرين، *اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من العلم والمغامرة*، نقله للعربية قدري قلعجي وقدم له الشيخ حمد الجاسر (بيروت، بغداد: دار الكاتب العربي، مكتبة النهضة، ١٩٦٣م)، ص ص ٥٢ ـ ٥٣.

فأنت لست كنساء كثيرات يُصِخْن السمع للأغاني التافهة وإذا كان عملي هذا قد حاز قبولك، فسأعتبر نفسي قد نلت الإطراء الكافي . . . . »[١٨] وعندما كان في بلاد فارس يحدثنا أنه التقى بتاجر فارسي كان قد تعرف عليه أثناء الحج، وأن هذا التاجر أعجب به إعجابًا شديدًا «وقد قال لي رفيقي التاجر: تعال هنا يا يونس حتى تتأكد أني راغب فيك، وأني أريد أن أحظى برفقتك، فإنني سأزوجك ابنة أختي شمس، وحقًّا إنها لاسم على مسمى، فقد كانت رائعة الجمال. وقال لي هذا التاجر ما هو أكثر من هذا . . . . »[١٩] والعبارة هنا مليئة بالمعاني الغامضة فلا ندري ما الذي عرضه عليه أكثر من علاقة الزواج من ابنة أخته شمس.

والواقع أن عمل ڤارتيما لصالح البرتغال، أمر متسق تمامًا مع طبيعة الفترة الزمنية التي عاش فيها (١٤٦٥ ـ ١٥١٧م)، وقام خلالها برحلته (١٥٠٣ ـ ١٥٠٨م)، فمنذ أواخر القرن الخامس عشر، وطوال القرن السادس عشر، تعرضت المدن والدول الإيطالية لمحنة شديدة بسبب الضغط العثماني من ناحية أوربا الشرقية، وفي البحر المتوسط، وبسبب حروب الجهاد البحري التي كان يقوم بها المسلمون المطرودون من الأندلس، وسكان شمال أفريقيا، والتي يصفها الكتاب الغربيون بأنها حركة قرصنة.[٢٠] وبسبب دخول بعض الدول

---

(١٨) Varthema, pp. 1-2.

(١٩) Varthema, p. 104.

(٢٠) تاريخ ميلاد ڤارتيما غير محدد تمامًا، ولكن الموسوعة البريطانية ترجِّح أن يكون ذلك بين ١٤٦٥م و١٤٧٠م؛ أما وفاته فتذكر الموسوعة أنها في سنة ١٥١٧م.

Encyclopedia Britannica, Micropaedia, Vol. 12, Art: Varthema, Lodovico de.

أما عن الفترة الزمنية التي قام فيها برحلته، فرغم أن الطبعة التي بين أيدينا، والتي أشرنا لها في حاشية سابقة، تحددها على صفحة الغلاف هكذا: (١٥٠٣ . ١٥٠٨) إلَّا أن الموسوعة البريطانية تبيِّن أنه بدأ رحلته في أواخر سنة ١٥٠٢م، وتعني بذلك تاريخ مغادرته للبندقية، ويبدو أن الباحثين اعتبروا وصوله للإسكندرية (١٥٠٣م) هو البداية الحقيقية لرحلته، .Britannica, Ibid. وفيما يتعلق بالضغط العثماني على أوروبا في هذه الفترة، أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، فرغم كثرة المراجع في هذا الموضوع، إلَّا أننا نرجح المرجعين التاليين: =

الأوربية الأخرى كمنافسين في تجارة البحر المتوسط،[٢١] وبسبب اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وتحول طرق التجارة[٢٢] وتدني قيمة الطريق القديم عبر البحر الأحمر ومصر، وقد نتج عن ذلك اتجاه عدد كبير من الإيطاليين إلى أيبيريا (أسبانيا والبرتغال) للعمل في التجارة والصرافة وتأجير السفن والتدريبات البحرية والعسكرية والتجسس[٢٣] كما ذهب عدد كبير آخر للعمل في المجالات نفسها عند الجانب الآخر، ونعني به الدولة العثمانية.[٢٤] لقد كان سفير البندقية في إسطنبول، يزود بنفسه السلطات العثمانية — في بعض الأحيان — بتحركات الأسطول الأسباني،[٢٥] فقد كان البنادقة غير عاطفيين ولا يجدون حرجًا في تبادل المعلومات، مقابل مزايا اقتصادية،[٢٦] وتشير مراجع التاريخ الأوربي عن القرن السادس عشر، إلى ازدهار تجارة غريبة من نوع خاص، ونعني بها تجارة المعلومات أو التجسس،[٢٧] فقد أثبتت الدراسات المعتمدة على الوثائق أن البنادقة وأهل زاجوسا، كانوا يبيعون المعلومات لكل الأطراف المتنازعة دون أي ولاء عقائدي. لقد كانوا يبيعون لمن يدفع أو يهدد.[٢٨]

ونعتقد أن الراغبين في تقصي الجذور التاريخية، لأساليب جمع المعلومات على نحو متطور، في هذا التاريخ الحديث والمعاصر، عليهم الرجوع إلى وثائق دول البحر المتوسط

= Jan Morris, *The Venecian Empire* (London: Faber and Faber, 1980).

Paul Coles, *The Ottoman Impact on Europe* (London: Thames Hudson, 1968).

(٢١) Coles, pp. 133-34.

(٢٢) Ibid., p. 137.

(٢٣) Richard Rapp, *Industry and Economic Decline in Sevententh Century Venice* (London: Harvard University Press, 1976), p.3. ورغم أن هذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه يتناول القرن السابع عشر، إلا أنه في صفحاته الأولى تناول بإيجاز الأوضاع الاقتصادية للبندقية قبل القرن السابع عشر.

(٢٤) Coles, pp. 133-34.

(٢٥) Ibid.

(٢٦) Ibid.

(٢٧) Ibid.

(٢٨) Ibid. وانظر أيضًا: Morris, p.6.

منذ نهاية القرن الخامس عشر، وطوال القرن السادس عشر، فقد كان الصراع على أشده في هذه المنطقة، وكان الحصول على المعلومات مسألة حياة أو موت، وماذا عساها تكون حركة الكشوف الجغرافية في صميمها؟ أليست حركة لتبين الطرق المؤدية إلى مراكز الثروة؟ أليست حركة جمع معلومات في أساسها؟ وأليست حركة القرصنة أو الجهاد البحري في حاجة إلى معلومات عن السفن المغادرة، وعن حمولاتها، وركابها، وما إلى ذلك؟ . . . وهذا الصراع المرير في البحر المتوسط بين القوى الأيبيرية والقوى الإسلامية، والصراع بين القوى الأيبيرية نفسها (الصراع الإسباني البرتغالي) على اقتسام العالم الجديد، ثم فيض المعادن النفيسة — وخاصة الفضة — الذي انهال على إسبانيا والبرتغال من العالم الجديد.[٢٩] في ظل هذه الظروف تكون التربة المثلى لحركة جمع المعلومات أو الجاسوسية، وقد اختار رحالتنا ڤارتيما الجانب البرتغالي ليقدم له خدماته، واختار آخرون أطرافًا أخرى، بصرف النظر عن قول ڤارتيما في مطلع رحلته إن حبه للعلم وشغفه بمشاهدة غرائب العالم هما دافعاه للقيام برحلته.[٣٠] ويميل المستشرق بادجر إلى أن ڤارتيما كان عسكريًّا سابقًا، لاهتمامه الشديد في ثنايا رحلته بوصف التشكيلات العسكرية، والأسلحة المختلفة. وقد لاحظنا ذلك بالفعل عند قراءة رحلته للجزيرة العربية، ورحلته لفارس، ورحلته للهند وسواحل أفريقيا الشرقية. وقد قدم نفسه لأحد التجار المكيين على أنه صانع مدافع.[٣١] ورغم أن ڤارتيما لم يحدثنا بشكل مباشر عن رفاقه في رحلته، إلا أنه يمكننا الاستنتاج أنه لم يكن وحده، وربما كان ضمن شبكة جاسوسية، يتعرف أفرادها على بعضهم البعض الآخر، بكلمات سرية أو

---

(٢٩) Fernand Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II* (New York: Harper, 1972), vol. I, pp.479, 618-21.

ورغم أن الإحصاءات الواردة في كتاب برودل متعلقة بالفترة من ١٥٨٠م إلى ١٦٢٦م، وهي فترة خارجة عن نطاق هذا البحث، إلا أن فترة رحلة ڤارتيما (بواكير القرن السادس عشر) كانت قد بدأت تشهد انتصارات برتغالية وإسبانية في مجال الكشوف الجغرافية، أعقبها ورود كميات من المعادن النفيسة، والتوابل الغالية، كانت تبشر بالمزيد.

(٣٠) Varthema, pp. 1-2.

(٣١) Ibid., pp. 49-50.

نحو ذلك، فهو يذكر لنا أنه قد قُبض عليه مع آخرين في عدن،[٣٢] كما يخبرنا أنه لم يكن وحيدًا في تجواله في شرق أفريقيا، وأن أحد رفاقه كان مدفعيًّا bombardier .[٣٣]

وثمة مسألة أخرى متعلقة بطبيعة الفترة الزمنية في أوربا البحر المتوسط في القرن السادس عشر، تركت تأثيرها الواضح في كتابات ڤارتيما، ونعني بها موقف الأسبان والبرتغال من اليهود. فمنذ أواخر القرن الخامس عشر، كانت السياسة الرسمية لإسبانيا والبرتغال هي طرد غير المسيحيين (اليهود والمسلمين) أو تحويلهم للمسيحية قسرًا. ويروي لنا الباحث بول كولز كمثال، قصة إحدى الأسر اليهودية المطرودة من أسبانيا، وهي أسرة ناسي Nasi ، فيذكر أنها طردت من أسبانيا سنة ١٤٩٢م، وتحولت للمسيحية في لشبونة سنة ١٤٩٧م وغادرت البرتغال بحثًا عن مكان في أوربا، فلم تجد المأوى إلا في اسطنبول في خاتمة المطاف، حيث أعلن أفراد الأسرة أنهم يهود وليسوا على النصرانية.[٣٤] ويقارن الباحث شارلز لي Charles Lea وهو باحث متخصص في التاريخ الأسباني والبرتغالي بين إخراج المسلمين وإخراج اليهود، فيذكر أن إخراج المسلمين كان عملاً كنسيًّا خالصًا، ويؤكد — مدعمًا حديثه بالوثائق — أن الشعب الأسباني لم يكن راضيًا عن إخراج المسلمين الذين كانوا طاقة منتجة، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لليهود الذين كانوا يعملون بالربا، وامتصوا دماء الشعب الإسباني، فخرجوا مشيعين باللعنات من الناس، ومن الكنيسة، ومن الحكومة، على نحو سواء.[٣٥] وقد أثرت هذه الأفكار التي كانت شائعة وراسخة في أوربا البحر المتوسط تأثيرًا صارخًا في أفكار ڤارتيما، خاصة وأن اليهود المطرودين من أسبانيا والبرتغال، كانوا يذهبون للدولة العثمانية العدو الطبيعي لأسبانيا والبرتغال. ولذا نجد ڤارتيما — إرضاءً لقرائه الأوربيين، يقدم قصصًا — نعتقد أنها خرافية ومختلقة، عن يهود ذكر أنه رآهم في

---

(٣٢) Ibid., p.60.

(٣٣) Ibid., p. 292.

(٣٤) Coles, pp. 156-57.

(٣٥) Charles Lea, *The Moriscos of Spain: Their Conversion and Expulsion* (Philadelphia: Lea Brothers, 1901), pp. 8-14. وقد أورد شارلز لي عددًا كبيرًا جدًّا من الوثائق، ترجم بعضها للإنجليزية، لإثبات فكرته.

الطريق إلى المدينة، ووصفهم بأنهم كالوحوش غير المستأنسة، وأنهم إذا وصل إليهم مسلم سلخوه حيًّا، وهم منعزلون لا يتركون الجبل الذي يعيشون فيه، ويتراوح طول الواحد منهم بين خمسة أقدام وستة. وقد شكك المستشرق بادجر في وصفه هذا، مما يدعو للشك في الرواية كلها، وفي حقيقة وجود هذه الجماعة اليهودية، فلم يورد الرحالة الذين أتوا بعد ڤارتيما شيئًا عن يهود في الموضع الذي أشار إلى وجودهم فيه. ولكننا على أية حال قد أوردنا الظروف التاريخية التي نعتقد أنها كانت وراء هذه الرواية، رغم أن الباحثين والمترجمين العرب قد ترجموا فقرات بهذا الشأن دون أي تعليق عليها.(٣٦) كما أن بوركهارت — الرحالة الدقيق الذي زار الأماكن المقدسة الإسلامية في مطلع القرن التاسع عشر — لم يورد شيئًا كهذا. والغريب أن ڤارتيما نفسه ذكر أنه من المحظور على غير المسلمين الإقامة في جدة، فما البال بالمدينة المنورة أو المناطق القريبة منها؟

* * *

ولا يمكن تفريغ رحلة ڤارتيما هذه من معنى الصراع المملوكي البرتغالي أيضًا، خاصة وأن هذه الرحلة تمت في فترة زمنية تكاد تكون مزامنة لرحلات برتغالية أخرى ذوات أهمية واضحة. ففي سنة ١٤٨٧م وصل إلى مصر الرحالة بدرو دي كوفلهام De Covilham (٣٧) الذي كان يعمل لحساب البرتغال، والذي أبحر إلى عدن وشرق أفريقيا، وكانت المعلومات التي قدمها تشكل أحد الأسس التي اعتمد عليها الرحالة الأشهر، فاسكو دا جاما،(٣٨) الذي دار حول رأس الرجاء الصالح، ووصل الهند في سنة ١٤٩٨م، وعاود الوصول إليها مرة أخرى سنة ١٥٠٢م، وتوالت الحملات البرتغالية على شرق أفريقيا والهند بعد ذلك.(٣٩)

---

(٣٦) بيرين، *اكتشاف*، ص ص ٤٢ - ٤٣.

(٣٧) الجمل، *تاريخ*، ص ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٣٨) الجمل، *تاريخ*، ص ص ١٧٤، ١٧٥.

(٣٩) James Duffy, *Portuguese Africa* (London, 1959), p. 26.

لقد تمت رحلة ڤارتيما إذن بعد أن كان الصراع البرتغالي المملوكي قد بدا يميل لصالح البرتغال، وإن كانت معركة ديو البحرية التي حدثت سنة ١٥٠٩م هي التي أكدت التفوق البرتغالي بشكل نهائي. وقد وصل ڤارتيما لمصر سنة ١٥٠٣م في زمن السلطان المملوكي قانصوة الغوري (١٥٠٢ ـ ١٥١٦م)،[٤٠] وليس في المراجع المتاحة لنا ما يشير إلى لقاء ڤارتيما به، أو إحساس الغوري بوصول ڤارتيما. كما يلاحظ أن الفصول التي كتبها ڤارتيما عن مصر قصيرة جدًّا، كما أشار هو نفسه إلى أن الأوربيين يعرفون أمور مصر، لذلك فإنه لن يطيل في الحديث عنها، مما يعطي انطباعًا بأن مصر لم تكن هي بُغْيته الأساسية.[٤١]

* * *

بعد هذا العرض الذي يضيف أبعادًا جديدة لرحلة ڤارتيما، نعلق بإيجاز على بعض المعلومات التي ذكرها عن الأماكن المقدسة، مكتفين بما نراه مفيدًا للقارىء العربي، وذلك لأن الكتب التي تحدثت عن الرحالة الغربيين في جزيرة العرب، والتي ترجمت للعربية، تقدم عرضًا مسهبًا، وأحيانًا موجزًا لرحلة ڤارتيما، بالإضافة إلى أننا خصصنا أحد الملاحق في هذا البحث لترجمة كاملة لرحلة ڤارتيما منذ رحل من دمشق قاصدًا الأماكن المقدسة الإسلامية، إلى أن غادرها عن طريق ميناء جدة. وغني عن القول أن رحلة ڤارتيما للأماكن المقدسة، لم تكن رحلته الوحيدة في الشرق، فقد وصف جزيرة التوابل في شرق جاوة، «ومن المحتمل أن يكون أول من ذكر أستراليا،»[٤٢] وقبل ذلك زار جنوب الجزيرة العربية، وسواحل الخليج العربي، وبلاد فارس والهند، كما زار أثناء عودته سواحل شرق أفريقيا. ولكن الذي يهمنا في هذا البحث هو زيارته للأماكن المقدسة الإسلامية.

---

(٤٠) محمد فريد، *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، تحقيق إحسان حقي (بيروت: دار النفائس، ١٩٨١م)، ص ١٢٢.

(٤١) بعد أن كتب ڤارتيما بضعة أسطر عن الإسكندرية، قال ما ترجمته: «وسرعان ما غادرتُ الإسكندرية، فهي معروفة للجميع «ولم يتعد ما كتبه عن القاهرة صفحة من القطع الصغير.»
Varthema, pp. 5-6.

(٤٢) بدول، *الرحالة*، ص٢٣.

لقد وصل ڤارتيما إلى الإسكندرية، ورحل منها إلى القاهرة، فبيروت فطرابلس فحلب، وزار حماة ومنين ودمشق، التي التحق فيها بقافلة الحج بعد أن رشا قائدها، فألبسه لباس المماليك.(٤٣) ورحل إلى المُزَيْريب، وسار على طريق الحج الشامي، وخلط بين مسميات منازله، فخلط بين عقبة الشامي وقريتي سدوم وعاموراء، وظل مع القافلة حتى وصل إلى مدينة الرسول، وقدم نفسه للناس باسم يونس.(٤٤) ولما كان لقب حاج، هو اللقب الذي تعود أهل الحجاز إطلاقه على رواد الأماكن المقدسة، فهو إذن الحاج يونس، ولما كان ضمن جماعة المماليك فهو — إن شئت — الحاج يونس المملوك، أو المملوك يونس، أو الحاج يونس المملوك المصري، ثم انتقل مع القافلة إلى مكة المكرمة، فوصف بحرًا من الرمال في الطريق المؤدي إليها، وربما كان يقصد منطقة قاع البزوا الواقعة بين بدر ورابغ على الطريق بين المدينة ومكة، إلا أنني لست متأكدًا من ذلك، وأخطأ في تحديد موقع مدائن صالح كما التبس عليه الأمر فجعل جبل سيناء في بلاد الحجاز. وعند حديثه عن مكة المكرمة ذكر ما يفيد أن المسلمين يقدمون أضحياتهم في عرفات، وليس الأمر كما ذكر، . . . إلى غير ذلك من الأخطاء. ورغم هذا فإن رحلته لا تخلو من فائدة، فقد قدم لنا وصفًا للمسجد الحرام بمكة المكرمة على أيامه، وآخر للمسجد النبوي، كما أورد بعض المعارف التي لا ينبغي الاكتفاء بالنظر إليها كخرافات، وإنما يجب متابعة التحري عنها لاحتمال أن يكون فيها شيء من الصحة، مثل حديثه عن منطقة فيها مُومْياوَات تشفي لحومها المجففة الكسور،(٤٥) وتجعل الجروح تلتئم. ورغم أنه حدثنا عن مواقع أثرية استنتج الباحثون عند قراءة رحلته أنه يقصد مدائن صالح، فجزموا بخطئه في تحديد الموقع، إلا أنه ربما كانت هناك منطقة أثرية أخرى في الموضع الذي حدده، وعلى الأثاريين تبين وجه الصحة في ذلك. وفي الملحق من هذا البحث، ترجمة كاملة لرحلته للأماكن المقدسة، والطريق إليها، مع موجز لتعليقات المستشرق بادجر عليها، وتعليقات أخرى من عندي، ونعتقد أن هذا الملحق يغني عن العرض المفصل للرحلة.

---

(٤٣) Varthema, p. 102.

(٤٤) Varthema, p. 33.

(٤٥) Ibid. وانظر أيضًا تعليق بيرتون الذي نقله لنا بادجر، في تعليقات هذا البحث.

ملحق. الترجمة الكاملة لرحلة فارتيما، منذ خروجه من دمشق قاصدًا الأماكن المقدسة حتى مغادرته جدة.

ملاحظات عن النص المترجم:

١ ـ الصلاة على النبي، والترضّي على الصحابة، ووصف مكة بالمكرمة، والمدينة بالمنورة — كل ذلك من عند المترجم، ولا وجود له في النص الأصلي الذي ترجمنا عنه.

٢ ـ بعض الأفكار ذوات المعاني المُمْعنة في الكفر أو المخالفة للحقيقة، حُذِفَت من المتن، مع الإشارة إليها في الحواشي بالتفصيل، حتى لا نُخِل بالأمانة العلمية.

٣ ـ كل ما هو بين أقواس، إضافة من المترجم، ومع ذلك فقد أشرتُ إلى ذلك في الحواشي تأكيدًا لكون ما هو بين أقواس تعليقًا من المترجم، وكان لابد من هذا في الواقع حتى لا يُفْجع القارىء المسلم بأفكار تمس دينه، دون رد عليها، لذا كان من الضروري الرد عليها بسرعة دون انتظار الرجوع للحواشي.

٤ ـ جانب كبير من التعليقات الواردة في الحواشي هي للمستشرق الكبير بادجر، وقد لخصتها ونسبتها إليه، ومن الضروري التنويه إلى أن تعليقات بادجر موجودة في حواشي رحلة فارتيما، وعلى هذا فهي موجودة في الصفحات نفسها التي تتناول الموضوعات التي كتبها فارتيما، يعلق بادجر عليها. لذا وجدنا من التكرار الممل، إعادة توثيقها، أو إعادة كتابة أرقام الصفحات واسم المرجع، فمن المفهوم أن المرجع هو رحلة فارتيما في طبعتها التي ترجمنا عنها، وأن أرقام الصفحات هي نفسها أرقام صفحات الرحلة التي بها الموضوعات موضوع التعليق.

٥ ـ فيما يلي البيانات الكاملة للطبعة التي ترجمنا عنها:

The Travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta, Arabia Felix, in Persia, India and Ethiopia. Translated from the original Italian edition of 1510 with a preface by John Winter Jones, and with notes and an introduction by George Percy Badger. New York: Burt Franklin, 1863 (Works issued by the Hakluyt Society).

فصل
الطريق من دمشق إلى مكة (المكرمة)

ما ذكرناه من أمور متعلقة بدمشق قد يكون مفصَّلاً تفصيلاً غير ضروري، فالظروف تَدْعوني لكتابة رحلتي باختصار. ففي اليوم الثامن من شهر أبريل سنة ١٥٠٣م، استعدت القافلةُ للتوجه صوب مكة، ونظرًا لأنني كنتُ شغوفًا بالاطلاع على المناظر والأوضاع المختلفة، ولم أكن أعرفُ ما هو السبيل لذلك، فقد

كَوَّنتُ صداقة عميقة مع القائد المملوكي للقافلة، الذي كان في أصله نصرانيًّا تحول إلى الإسلام، فألبسني لِبَاس المماليك، وأعطاني حصانًا جيدًا، وجعلني بِصُحبة المماليك الآخرين، وقد حَقَّقتُ كلَّ هذا بأن دفعتُ له أموالًا وأشياء أخرى. وعلى هذه الحال اتَّخذنا طريقنا مسافرين ثلاثة أيام إلى موضع يُقال له المُزَيريبْ، حيث مكثنا ثلاثة أيام، حتى يشتري التجار ما يحتاجونه من الخيول، وفي المُزَيريب شيخ أسرة الزعبي العربية[٤٦] Ez-zāabi. ووفقًا لما يقوله العربُ فإن للشيخ الزعبي ثلاثة أخوة وأربعة أولاد ذكور، كما أنه يمتلك ٤٠,٠٠٠ حصان و١٠,٠٠٠ فرس، وله هناك ٣٠,٠٠٠ بعير لأن مراعيه تمتد مسيرة يومين. وعندما يفكر هذا الشيخ جِدِّيًّا في شن الحرب ضد سلطان القاهرة وحاكم دمشق وحاكم القدس، فإنه — في بعض الأحيان — في موسم الحصاد — عندما يَظُن هؤلاء الحكام أنه بعيد عنهم بُعْدًا يبلغ مئات الأميال، فإنه يخطط لشن غارة ذات صباح، على مخازن الغلال في المزيريب، حيث يجد الشعير والقمح وبقية الغلال قد وُضعت بإحكام في أكياس. فينهب الشيخ كل هذا، ورجاله سريعون جدًّا، فهم يولّون الأدبار دون أن يلحق بهم أحد. وفي بعض الأحيان يظل الشيخ يعدو بأفراسه نهارًا وليلة دون توقف، وعندما يصل في نهاية المطاف للجهة التي يقصدها، يقوم بتقديم حليب النوق إلى أفراسه، فهو — أي حليب النوق — منعش جدًّا، ويساعد على استعادة الحيوية. وصدقوني إن قُلت لكم إنهم لا يعدون، وإنما يطيرون كالصقور، فقد كنتُ معهم، ويجب أن تعلم أن غالبهم يمتطون الخيول غير مُسْرجة، بأثوابهم المعتادة، ولا يُستثنى من ذلك إلَّا عِلْية القوم منهم. ويتكون سلاح الواحد منهم من رمح (حربة) من خيزرانة هندية يبلغ طولها عشرة أذرع أو اثنتا عشرة ذراعًا cubits في آخرها قطعة من الحديد، وعندما يذهبون للقتال يتراصون متجاورين كأنهم ركائز starlings يُحَاذي بعضها بعضًا. وهؤلاء العرب (البدو) الذين أشرتُ لهم آنفًا ذوو أجسام صغيرة، ولونهم أصفر داكن، وأصواتهم كأصوات النساء، وشعورهم طويلة سوداء كثَّة. والحق أقول لكم إن أعدادهم هائلة لا يمكن إحصاؤها، وهم لا يكفون عن الاقتتال فيما بينهم. وهؤلاء البدو يقطنون الجبل، وعندما يَحين موعد مرور القوافل المتجهة إلى مكة (المكرمة) ينزلون من الجبل وَيَكْمنون لها بقصد نَهْبها. وهم يحملون زوجاتهم وأطفالهم وكل أمتعتهم وخيامهم فوق ظهور الجمال. وخيامهم تشبه خيام العسكر وهي مصنوعة من الشعر الأسود، ولها منظر كئيب.

وفي الرابع عشر من شهر أبريل سنة ١٥٠٣م[٤٧] غادرت القافلة المُزَيْريب، وكانت تَضُم ٣٥,٠٠٠ جمل، وحوالي أربعين ألف شخص، وقد كنَّا ستين مملوكًا، وكان ثلث المماليك يسير في مقدمة القافلة،

---

(٤٦) كتبها ڤارتيما هكذا: Zambei، وما ذكرناه في المتن، اعتمادًا على ترجيحات بادجر، في الطبعة التي نُترجم عنها.

(٤٧) ورد في متن الرحلة تاريخ ١١ أبريل، إلَّا أنَّ بادجر ذكر في تعليقه أن هذا من أخطاء ڤارتيما نتيجة العجلة، فقد غادر دمشق في ٨ أبريل، ووصل المزيريب بعد ثلاثة أيام، ومكث فيها ثلاثة أيام، =

وثُلثهم الثاني في وسطها، بينما كان ثلثهم الأخير في المؤخرة. ويجب أن تفهم أننا أتممنا رحلتنا إلى مكة (المكرمة) — طوال الوقت — بهذه الطريقة. إن الرحلة من دمشق إلى مكة تستغرق أربعين نهارًا وأربعين ليلة. وعلى أية حال فقد خرجنا من المُزَيْريب صباحًا وتابعنا سفرنا عشرين ساعة، وعندئذ أصدر قائد القافلة إشارات معينة لكل جماعة من جماعات القافلة، تأمر بتوقف جميع القافلة، وأن تلتزم كل جماعة مكانها. وهكذا توقَّفنا أربعًا وعشرين ساعة، وتَمَّ إنزال الأحمال من فوق ظهور الجمال، وراح كُل أفراد القافلة يتناولون طعامهم، ويُطعمون دوابَّهم. ثم تلقت القافلةُ إشارة، فأعاد الجميعُ الأحمال إلى ظهور الدوابّ في الحال. ويجب أن تعلم أنهم يقدمون للجمل ما يساوي خمسة أرغفة فقط من الشعير غير المطبوخ، ولا يزيد حجم الرغيف الواحد على حجم الرمانة، ثم يمتطون خيولهم، ويستمرون طوال الليل وطوال النهار التالي، في سفر غير منقطع، فإذا علمت أن هناك اثنتين وعشرين ساعة سابقات، فأضف إليهن أربعًا وعشرين ساعة أُخريات. وكانت القافلة تجد الماء طوال الأيام الثمانية، بحفر الأرض المترية أو الرملية، أو من الآبار وأحواض المياه. وبعد انقضاء الأيام الثمانية تتوقف القافلة ليوم أو يومين حتى لا تَنُوء الجمال بأحمالها بعد أن غدا مشيها وئيدًا، إذ أن الجمل الواحد كان يحمل أحمالاً توازي ما يحمله بغلان، وكان الركب يقدم لهذه الحيوانات البائسة ماء تشرب به مرة واحدة كل ثلاثة أيام. وعندما كنا نتوقف عند مورد ماء، كان يتحتم علينا دائمًا أن نخوض معركة مع أعداد كبيرة من العرب (البدو) ولكنهم لم يقتلوا منا أكثر من رجل وامرأة، فانحطاط عقولهم، رغم كثرتهم، جعلنا — مع أننا لا نزيد على ستين مملوكًا — قادرين على مقاومة أربعين ألف بدوي، أو خمسين ألفًا، فهؤلاء الوثنيون (يستخدم قارتيما أحيانًا لفظ الوثنيين للدلالة على المسلمين، وكان بعض المسيحيين الأوربيين يسمي المسلمين كذلك في عصره) لا يملكون سلاحًا أفضل مما عند المماليك. ويجب أن تعلم أنني كوَّنت خبرة ممتازة عن هؤلاء المماليك خلال رحلتي معهم، فقد رأيت وآخرون، المملوك يأخذ أحدَ عبيدِه، ويضع رُمانة فوق رأسه، ويُجلسُه على بُعد اثنتيْ عشرةَ خطوة أو خمس عشرة خطوة، ثم يُصوب سهمه نحو الرمانة، ويطلقه من قوسه فيصيبها. ومرة أخرى رأيت مملوكًا يجري بالفرس عدْوًا ثم فك سِرجَهُ ووضعه فوق رأسه، ثم أعاده لموضعه فوق ظهر الفرس دون أن يسقط، وكان كل هذا يحدث والفرسُ منطلقة بسرعتها القُصوى. وسروج خيل المماليك على شاكلة السروج الأوربية.[٤٨]

= وبناء على ذلك فقد استنتج بادجر أن التاريخ الصحيح هو ١٤ أبريل، وقد أخذنا بهذا التعليق، وأثبتنا ما يطالعه القارىء في المتن.

(٤٨) لقد فسر قارتيما نفسه ذلك، في أكثر من موضع في رحلته هذه، فهؤلاء المماليك يقضون معظم أوقاتهم في التدريب. عن المماليك ومهارتهم العسكرية، انظر: السيد الباز العريني، «الإقطاع في الشرق الأوسط،» *حوليات كلية الآداب، جامعة القاهرة*، مج ٤ (يناير، ١٩٥٧م)؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، *مصر في عهد دولة المماليك البحرية* (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٥٩م)؛ =

فصـل
عن مدينتيْ سدوم وعاموراء

عندما سافرنا اثنيْ عشر يومًا، وجدنا وادي سدوم وعاموراء Gomorrah.(٤٩) حقًّا إنَّ الكتاب المقدس لم يكـذب، فالمرء يرى رأي العـيْن أنهما قد خَرِبَتَا نكالاً من الله، وأقول إنه توجد ثلاث مدن فوق قمم ثلاثة جبـال، ومـا زال يوجـد فوقها على ارتفاع ثلاث أذرع أو أربع، ما يبدو دمًا يشبه الشمع الأحمر مختلطًا بالتراب. أقول لكم الصدق، إنني أعتقد بناءً على ما رأيتُ، أن شعبًا شريرًا كان هنا. فكل ما يحيط بهذه البقعة صحراء قاحلة، فالأرضُ مَوات لا تُنبتُ ما يُؤكَل، والماءُ معدوم، وقد كانوا يعيشون على المَنِّ، وقد عاقبهم الله لأنهم كفروا بأنْعُمِهِ، فَحاقَ بهم عذابُه وترك اللهُ ديارهم خَرابا لتراها الأجيال. لقد عبرنا ذلك الوادي الذي يبلغ طوله عشرين ميلاً على الأقل، وهناك مات ثلاثة وثلاثون شخصًا عطشًا، وقد دُفن كثيرون في الرمال وتُركت وجوههم دون أن تغطَّى بالرمال لأنهم لم يُسْلموا الروح بعد.(٥٠) وبعد ذلك وجدنا جبلاً صغيرًا توجد بالقرب منه بئر ماء، فَعَمَّنا الفرح. وقد حَطَطْنَا رِحَالنا فوق هذا الجبل، وفي الصباح

= سعيد عبـدالفتـاح عاشـور، *العصر المـاليكي في مصر والشـام* (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٥م)؛ السيد الباز العريني، *الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك* (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٦م).

(٤٩) أهل سدوم هم قوط لوط، وقد أفاضت تفاسير القرآن الكريم في ذكر أمرهم.

(٥٠) يذكر بادجر تعليقًا على ذلك ما ملخصه: بعد اثني عشر يومًا من الرحلة، لابد أن يكون رحالتنا قد اجتاز منطقة البحر الميت اجتيازًا تامًا وأنه يقول إنه ما زال بجوار البحر الميت، فمعنى هذا أنه رجع إلى رواية الكتاب المقدس عن خراب مدينة سدوم، فإلى جوار مدينة سدوم ما زال الانخفاض باديًا بالقرب من البحر الميت، ممتدًا من بانياس عند سفح جبل الشيخ إلى رأس خليج العقبة، ويستطرد بادجر ذاكرًا أن طريق قارتيما إذا كان هو طريق الحج المعروف الآن (أيام بادجر في سنة ١٨٦٣م) فإنـه يكـون بعيدًا حوالي عشرين ميلاً إلى الشرق من وادي عربة Araba (وهو اسم الوادي إلى الجنوب من البتراء). ومن غير المستبعد أن يكون قارتيما قد خلط بين الممر المجدب القاحل الذي يتشعب هنا من سلسلة الجبال الرئيسة، والمعروف بعقبة الشامي، وبين وادي سدوم وعاموراء، فتحدث عن عقبة الشامي باعتبارها وادي سدوم وعاموراء، وهذا خطأ واضح.» ومما يجعلنا نميل إلى ذلك (أي بادجر) أن بوركهارت ذكر عقبة الشامي باعتبارها تقع على مسيرة اثني عشر يومًا من دمشق، وهو ما ينطبق على مقالة قارتيما. ويستطرد بادجر قائلاً: «إن قارتيما قد توهم أو أن أفكاره الـدينية قد غلبته على الحقيقة الموضوعية فهيَّأ له خياله أن هذا اللون الأحمر الناتج عن التركيب الجيولوجي للصخور، ما هو إلاَّ دم يبدو كشمع أحمر نتيجة التدمير الإلهي لسدوم، مع أنه كان بعيدًا تمامًا عن منطقة سدوم هذه.»

الباكر لليوم التالي، قَدِم ٢٤ ألف بدوي قائلين إن الماء ماؤهُم وإنه يجب علينا أن ندفع لهم لِقاءَ ما أخذنا منه، وقد أجبناهم أنه لا يتعين علينا الدفع لهم، فالماءُ ماءُ الله، فشرعوا يقاتلوننا زاعمين أننا أخذنا ماءهم، فتحصنا جاعلين جمالنا سِتْرًا بيننا وبينهم، وجلس التجار بين هذه الجمال، ورُحنا نُناوشهم بشكل مستمر، لأنهم حاصرونا نهارًا وليلتين، إلَّا أن أمورًا استجدت آخر الأمر: فلم يَعُد لدينا ولا لديهم ماء للشرب، وقد أحاطوا إحاطة كاملة بالجبل، مهددين باختراق صفوف القافلة. ولأننا لم نعد قادرين على مواصلة الحرب، ناقش قائد القافلة الأمر مع التجار المسلمين، وانتهى الأمر بأن قدمنا لهؤلاء البدو ١٢٠٠ من الدوكات الذهبية،(٥١) فأخذوها ثم طالبوا بمبلغ ١٠,٠٠٠ أخرى، فأدركنا أنهم يريدون شيئًا آخر إلى جانب المال، فدبَّر قائد القافلة الحكيم الأمر مع رجال القافلة، بأن أمر كل القادرين على حمل السلاح ألَّا يركبوا الجمال، وأن يُعِد كل منهم سلاحه. وأقبل الصبح فجعلنا كل القافلة في المقدمة، وبقينا نحن المماليك في المؤخرة. لقد كنا جميعًا ثلاثمائة مسلح، وقد شرعنا فور بزوغ نور الصباح في القتال، ولم يستطع البدو أن يقتلوا من جانبا إلَّا رجلاً وامرأة؛ أما نحن فقد قتلنا منهم ١٦٠٠ شخص. ولا تندهش لهذا العدد الكبير الذي قُتِلَ منهم، فذلك يرجع إلى أنهم كانوا جميعًا عراةً، على ظهور خيول غير مسرجة، لذا كانت تواجههم صعوبات كبرى عند محاولة التحول عن طريقهم.

فصل

. . . . . .

. . . . . .

واستأنفنا رحلتنا في اليوم التالي، وبعد يومين وصلنا لمدينة النبي Medinathalnabi. وبالقُرب من المدينة (المنورة) — على بعد أربعة أميال — وجدنا بِئْرًا،(٥٢) كانت القافلة قد توقفت عندها يومًا حيث استحمَّ

---

(٥١) الدوكات هي الدنانير البندقية، ففي ٣١ أكتوبر سنة ١٢٨٤م قرر مجلس شيوخ البندقية، ضرب عملة ذهبية سُمِّيت في أوربا باسم الدوكات، عرفت في الشرق بالبندقي أو الإفرنتي، ووصفها مؤرخو مصر (بالمشخَصَة) نسبة لصور القديسين المنقوشة عليها. عبدالرحمن فهمي، *النقود العربية: ماضيها وحاضرها* (القاهرة: وزارة الثقافة، ١٩٦٤م)، ص٩٤.

(٥٢) آثرنا حذف عدة عبارات عن زعم قارتيما وجود يهود يقيمون في جبل قرب المدينة على أيامه، رغم أن هذه المعلومات متداولة في الكتب المترجمة للعربية، والمتوافرة في كل مكان، وذلك لقناعتنا بأنها معلومات غير حقيقية، كتبها قارتيما لقرائه الغربيين إرضاءً لنزعتهم الشديدة في هذه الفترة التاريخية، نحو احتقار اليهود، كما سبق أن أوضحنا في نص بحثنا هذا، وإتمامًا للفائدة نورد هنا ما حذفناه من المتن، بالإضافة لتعليق المستشرق بادجر، مع توضيحات منِّي. =

كلّ أفرادها وخلعوا ملابسهُم وارتدوا ملابس الإحرام المكونة من أقمشة الكتان النظيفة قبل دخول المدينة (المنورة) التي تضم حوالي ثلاثمائة منزل، ويُحيط بها سور من الطين، وشُيدت جدرانها من الحجارة. والمنطقة

= فصـل

عن جبل يسكنه اليهود

في نهاية اليوم الثامن وجدنا جبلاً يظهر محيطه ما بين عشرة أميال واثني عشر ميلاً، يقطنه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف يهودي، يروحون ويجيئون عُراة، ويبلغ طول الواحد منهم ما بين خمسة أشبار أو ستة، وأصواتهم كأصوات النساء، ويغلب عليهم السواد، ولا يأكلون إلا لحوم الغنم، وهم مختونون، ويعترفون بأنهم يهود، وإذا وقع أحد المسلمين في أيديهم، سلخوه حيًّا. وعند سفح هذا الجبل وجدنا بركة تجمَّع ماؤها في موسم هطول الأمطار، وقد حمَّلنا من مائها ١٦,٠٠٠ بعير، وكان اليهود غير سعداء بفعلنا هذا، وراحوا يحومون حول الجبل كالماعز البرية إلَّا أنهم لم ينزلوا السهل لأنهم يعادون المسلمين حتى الموت. وكان يوجد عند سفح الجبل بالقرب من الماء الذي أشرت إليه، ست أو ثماني شجيرات شائكات جميلات، ووجدنا قُمْرِيَّتَيْن two turtledoves قد عشَّشتا فيها، وقد بَدَتَا لنا كمعجزة في وسط هذا الجو القاحل، فقد سافرنا خمسة عشر نهارًا وليلة لم نصادف خلالها طيرًا واحدًا أو حيوانًا. وقد استأنفنا . . . إلى آخر ما أوردناه في المتن.

ويعلق المستشرق بادجر على ذلك قائلاً إن ڤارتيما يحدد المكان باعتباره يبعد عن المدينة المنورة ثلاثة أيام، مما يجعل هذا المكان هو هديَّه Heyde المذكورة في خط سير رحلة بوركهارت، باعتبارها محطة التوقف الرابعة بعد العشرين لطريق الحج الحديث (أيام بادجر) للقادمين من دمشق، والتي تبعد عن خيبر أربع ساعات (راجع الملحق الثالث من كتاب بوركهارت: «رحلات في سوريا» *Travels in Syria*). والواقع أن بادجر في دراسته التي نوهنا عنها في أكثر من تعليق، قد ألقى ظلالاً كثيفة من الشك على رواية ڤارتيما هذه عندما ذكر أنه من غير المعقول أن يكون طول اليهودي خمسة أشبار، وعزا ذلك إلى سوء تقدير ڤارتيما للمسافة، فإذا كان ڤارتيما قد شاهدهم على البعد، فكيف عرف أنهم مختـونـون. وعاد بادجر ليقول إنه ربما سمع قصته هذه من المسلمين، والمعروف أن النزاعات القبلية في هذه الفترة وفي غيرها من الفترات كانت على أشدها، والقبائل المتخاصمة تضع — بالحق وبالباطل — في القبائل المعادية لها كل الصفات السيئة، فَلِمَ لا يكون ما سمعه داخلاً في نطاق الصراع القبلي، كما أن أحدًا من الباحثين الذين أتوا بعد ڤارتيما (بيرتون وبوركهارت مثلاً، وقد قرأت كتابيهما بالكامل — لم يشيرا إلى وجود يهود حول المدينة). والواقع أن الباحثين الذين ترجموا أو ألَّفوا عن ڤارتيما لم يفسروا بعض رواياته التفسير الصحيح، لإغفالهم للظروف التاريخية التي تمت فيهـا الـرحلة. بقي القول إن ڤارتيما لم يذكر أنه أجرى حوارًا مباشرًا مع هؤلاء اليهود المزعومين، كما هي عادته في إجراء الحوار في معظم فصول رحلته.

المحيطة بالمدينة (المنورة) قد ألهابها (. . . . .)[٥٣] فهي قاحلة مع استثناء واحد، فعلى مرمى حجرين خارج المدينة يوجد حوالي خمسين أو ستين نخلة في بستان بآخره قناة ماء، تَنْحَدِرُ أربعًا وعشرين درجة على الأقل، ومن هذه القناة ارْتَوَت القافلةُ عند وصولها للمدينة. والآن فإن أولئك الذين يقولون بأنَّ رُفاتَ محمد (ﷺ) مُعلق في الهواء في مكة (المكرمة) كذابون، ويستحقون التوبيخ، فقد رأيتُ قبره (ﷺ) في المدينة (المنورة) التي مكثتُ بها ثلاثة أيام، وكنتُ حريصًا على رؤية كل شيء فيها. ففي اليوم الأول من وصولنا للمدنية، وعند دخول المسجد النبوي، كنَّا مُجْبرين على أن يصطحبنا بعضُ الأشخاص الذين أمسكوا بأيدينا، وقادونا إلى قبر الرسول.

فصـل

عن موضع دفن محمد (ﷺ) وصحابته (رضوان الله عليهم)

يبلغ طول المسجد النبوي مائة خطوة، ويبلغ عرضه ثمانين خطوة، ويوجد بابان في كل جهة من جهاته الثلاث؛ أما جهته الرابعة فليس بها أبواب، وسقفُه معقود، وبه أكثر من ٤٠٠ عمود من الأحجار النارية، قد طُلِيت جميعًا باللون الأبيض، وبه حوالي ٣٠٠٠ مصباح، تُضاء عند أحد طرفي كل عقد من هذه العقود. وعند رأس المسجد من ناحية اليمين يوجد برج مربع squire tower يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه خمس خطوات، وقد غُطِّيَ بالحرير وعلى بعد خطوتين، يوجد حاجز معدني جميل، يقف الناسُ إزاءه لرؤية هذا البرج. ولهذا البرج باب صغير آخر وعند أحد بابيه يوجد حوالي عشرين كتابًا، وعند الجانب الآخر خمسة وعشرون كتابًا، وتتناول هذه الكتب جميعًا حياة الرسول (ﷺ) وتعاليم دينه، ويوجد إلى الداخل من هذا الباب قبر محمد (ﷺ) وقبور أبي بكر وعمر وعثمان وفاطمة.[٥٤] وقد كان محمد (ﷺ) قائدًا عربيًّا. (بل نبيًّا ورسولاً للناس كافة)؛[٥٥] أما علي رضي الله عنه فهو صهر الرسول، أي زوج ابنته فاطمة؛ وأما أبو بكر الصديق فيمكن وصفه بأنه كاردينال (كذا!) وأنه كان يريد أن يكون بابا (كذا!). أما عثمان (رضي الله عنه) فقد كان أحد صحابة الرسول، وكذلك كان علي (رضي الله عنه). وهذه الكتب التي أشرنا إليها تتناول حياة الرسول (ﷺ) وكل الصحابة (رضوان الله عليهم). وبسبب النزاع على اتِّباع أحد خلفاء الرسول السابق ذكرهم، يقوم هؤلاء الرعاع بتمزيق بعضهم بعضًا إربًا إربًا، دون تحكيم عقولهم.[٥٦] فهم يقتتلون، ويذبح بعضهم بعضًا ذبح البهائم بسبب هذه الهرطقات الباطلة.

---

(٥٣) يزعم أن الجفاف الذي أصاب ما حول المدينة دليل على غضب الله عليها، وهذا غباء وتعصب.

(٥٤) محمد ﷺ، وأبو بكر الصديق وعمر وعثمان وفاطمة، رضوان الله عليهم، ليسو جميعًا في قبر واحد.

(٥٥) ما بين القوسين إضافة من المترجم.

(٥٦) يشير للنزاع بين السنة والشيعة.

فصـل

عن قبر محمد (ﷺ) وقبور صحابته (رضوان الله عليهم)

كي نشرح لك عقائد أتباع محمد (ﷺ)، يجب أن تعلم أنه فوق البرج توجد قُبَّة يمكن أن تطوف في داخلها، وهي الموجودة بالخارج. ويجب أن تفهم الخدعة التي يدلِّسون بها على كل أفراد القافلة في أول ليلة تصل فيها إلى قبر الرسول (ﷺ). فقائد قافلتنا أرسل لقيِّم المسجد النبوي وطلب منه أن يريه جسد النبي (ﷺ) مقابل أن يعطيه ٣,٠٠٠ أشرفي ذهبًا Seraphim.(٥٧) وذكر له أنه قد أتى إلى هنا لينقذ روحه (ليكفر عن ذنوبه)، وليرى جسد النبي، كما ذكر له أنه مقطوع لا أب له، ولا إخوة ولا أخوات، ولا زوجة ولا أطفال، كما أنه لم يأت إلى هنا لشراء جواهر أو بهارات. عندئذ أجابه قيِّم المسجد بخُيَلاء وغَضَب: «كيف يمكن لعينيك التي اقترفت الذنوب الكثيرة في هذه الدنيا أن ترى الرسول (ﷺ) الذي من أجله خلق الله السماوات والأرض؟» وعندئذ أجاب قائد قافلتنا: «سيدي أنت قُلْت المَليح، لكن اعمل معروفًا ودعني أرى جسده الطاهر، وبمجرد أن أَرَهُ سأفقأ عينيَّ حبًّا له.» فأجاب القيِّم: «لا يا سيدي إنني سأقول لك الحقيقة، لقد رغب نبينا أن يموت هنا ليقدم لنا المثل، لكنه بمجرد أن مات رفعته الملائكة إلى السماء، وقال إنه اتحد مع الله أو أنه مساوٍ لله He is equal with God.» (وهذه بطبيعة الحال ليست عقائد المسلمين.)(٥٨) فقال له قائد القافلة: «إذن أين ذهب عيسى بن مريم؟» فقال قيِّم المسجد: «إنه أسفل النبي» — أي تحت قدميه. فقال قائد القافلة: «بس... بس... مش عاوز.... .» وخرج علينا قائد القافلة قائلاً: «انظروا كيف كنت أريد أن أُبعثر ثلاثة آلاف أشرفي Seraphim؟» وفي آخر الليل، حوالي الساعة الثالثة صباحًا أتى إلى مُخيَّمِنَا حوالي عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصًا من المسلمين كبار السن، نظرًا لأن قافلتنا كانت قد توقفت بالقرب من البوابة على بعد مرمى حجرين، وقد بدأ هؤلاء المسِنُّون في الصياح: «لا إله إلا الله... محمد رسول الله... يا نبي... هيا يا نبي... هيا رسول الله... استغفر لنا...» وهذا يعني أن محمدًا رسول الله سيظهر مرة أخرى. وقد سمع قائد القافلة، وسمعنا معه هذه الضوضاء، فأسرعنا — وأسلحتنا بأيدينا — ظانين أن هناك بدوًا يُزْمِعُونَ سَلْبَ القافلة، وقلنا لهؤلاء المسنين: «لِمَ هذه الجَلَبة، ومَاذا تقولون؟» لقد كان هؤلاء المسنون يصدرون أصوات إعجاب، كتلك الأصوات التي تصدر عن المسيحيين عندما يشاهدون أحد القدِّيسين يأتي بمعجزة. وقد أجابنا هؤلاء المسنون قائلين: «أنت ما تُبْصِر النور الّلي ييجي من بيت النبي وَرَا من السما...» فأجاب قائد القافلة: «أنا لم أَرَ شيئًا!» وراح القائد يسأل كل واحد منا إن كان قد رأى شيئًا، فأجبناه بالنفي، فقال واحد من المُسنِّين: «أأنتم عبيد (مماليك)» فأجاب القائد: «نعم.» فقال الرجل المُسِن: «آه يا سادة، أنتم لا تستطيعون رؤية هذه الأمور الروحية، فأنتم

---

(٥٧) الدنانير الأشرفية ضُربت بوزن الإفرنتي نفسه أو الدوكات أو الدينار البندقي (٣,٤٥ جرام) وذلك بعد أن لجأ السلطان الأشرف برسباي إلى تشجيع البنادقة على سك نقودهم الإفرنتية بالقاهرة لتمصير النقود الإيطالية. فهمي، *النقود العربية*، ص ص ٩٨ ـ ١٠٠.

(٥٨) ما بين القوسين إضافة من المترجم.

لستم صادقين في عقيدتكم،» فأجاب القائد: «آه يا أغبياء... آه يا مجنون... أنا كُنت نَاوِي أعطيك ثلاثة آلاف أشرفي... لكن أنا والله ما أعطيك... يا كلاب... يا أولاد الكلاب...» ويجب أن تعرف أن هذا الضوء ناتج عن نار أوقدوها ليجعلونا نعتقد أن نورًا يَنْبَعِثُ من قبر محمد (ﷺ). لذا فقد أمر قائدُ القافلة بألَّا يدخل أحد منَّا هذا المسجد النبوي. ويجب أن تعرف — وأنا أقول لكم الحق — أنه لا يوجد حديد أو صلب أو مغناطيس loadstone أو أي جبل، على نطاق أربعة أميال. لقد مكثنا بالمدينة (المنورة) أربعة أيام لتستريح جمالنا. ويتلقَّى أهل المدينة (المنورة) مؤنَهم من بلاد العرب السعيدة، ومن القاهرة وأثيوبيا عن طريق البحر، إذ لا يبعد ساحل البحر الأحمر عن المدينة (المنورة) أكثر من أربعة أيام.

فصـل
عن الرحلة من المدينة (المنورة) إلى مكة (المكرمة)

لقد تعبنا الآن من هذه الأمور وتلك الأباطيل التي بَدَتْ من محمد (هذا القول من أباطيل ڤارتيما، فما دَخْـلُ محمد ﷺ في ذلك)، فجهزنا أنفسنا للرحيل مع مُرْشِدينا الذين راحوا يَتَفَحَّصُون البوصلات والخرائط compasses and charts [٥٩] الضرورية للسفر بحرًا (يريد أن يقول إن الرحلة لم تكن سهلة.)[٦٠] وبـدأنـا الاتجاه جنوبًا، ووجدنا بئرًا رائعة كانت مليئة بالمياه. ويقول المسلمون إن هذه البئر قد حفرها القدِّيس مرقص Mark المبشر، كمعجزة من الله، نظرًا لحاجة هذه المنطقة إلى الماء. وتركنا هذه البئر وقد نفد ماؤها. ويجب ألَّا أنسى أن أذكر لكم لقاءنا مع بحر الرمال الذي غادرناه قبل أن نجد جبل اليهود. فقد استمر سيرنا خمسة أيام بلياليها في بحر من الرمال،[٦١] والآن ينبغي عليك أن تفهم عنه أنه سهل واسع جدًّا ومنبسط، ومليء بالرمال البيضاء الناعمة كالدقيق، وإذا حدث — لسوء الحظ — أن هبت الرياح من

---

(٥٩) ذكر بادجر في حاشية له على الترجمة الإنجليزية للرحلة ما يفيد أن العبارة غامضة، وأورد نصها كالتالي: "E con nostri piloti dfiie sue bussole e carte al corso del mare nesessairie grandi obsec- tuatori cominciamo a cominare per mezo giorno".

ويقـول بادجر إن النص الإيطالي غامض، ثم يستبعد أن يقوم الأدلاء البدو باستخدام خرائط وبوصلات لمعرفة الطريق من المدينة إلى مكة. ويقول بادجر إن ڤارتيما ربما رأى الأدلاء يتفحصون بوصلة صغيرة تسمى قبلة نامة kiblah nameh للتأكد من الاتجاه الصحيح أثناء الصلاة، وليس معنى هذا أن العرب لم يعرفوا البوصلة حتى هذا التاريخ، فقد عرفوها وكانوا يسمونها (بيت الإبرة).

(٦٠) ما بين القوسين إضافة من المترجم.

(٦١) يذكر بادجر أنه توجد أربعة طرق من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وأنه من الصعب أن نعرف من خلال وصف ڤارتيما الموجز، أي الطرق سلكها؛ أما بالنسبة لبئر القديس مرقص، فإن بادجر يؤكد أن أهل الحجاز لا يعرفون هذا الاسم.

الجنوب، بينما أنت قادم فيه من الشمال، فإنك ورفاقك قد تموتون. ورغم أن هذه الرياح كانت تهب في الاتجاه الذي كنا نسير فيه من الشمال إلى الجنوب إلاَّ أنَّ أحدًا منا لم يكن بمستطيع أن يرى رفيقه على بعد عشر خطوات.(٦٢) لقد كان الرجال يركبون فوق جمالهم في صناديق خشبية (هوادج)،(٦٣) حيث يأكلون وينامون داخلها، بينما كان أدلَّتنا، يسيرون ومعهم بوصلاتهم، كأننا مسافرون في البحر. وقد مات هنا كثيرون من الظمأ، ومات عدد أكبر عندما حفروا ووجدوا الماء، لأنهم شربوا كثيرًا جدًّا حتى انفجروا، وفي هذا المكان تُصْنَع (تتكوَّن) المُمْيَاوَات.(٦٤) وعندما تهب الرياح من الشمال تتجمع هذه الرمال في مواجهة طرف جبل سيناء،(٦٥) وعندما أصبحنا على قمة هذا الجبل وجدنا بابًا (يقصد طريقًا) من صُنع البشر، وعلى الجانب الشمالي — على قمة هذا الجبل — يوجد كهف له باب حديدي، ويقول الناسُ إن محمدًا (ﷺ) قد توقف في هذا الموضع ليُصلِّي. وتُسْمَعُ عند هذا الباب ضوضاء عالية. لقد عَبَرْنَا ذلك الجبل على حافَّة خطر عظيم، وغادرنا البئر التي أشرتُ إليها آنفًا، وظللنا في سفر مستمر طوال عشرة أيام، وقد خضنا حربين، مرتين، مع خمسين ألف بدوي. ولما وصلنا مكة كان ثمّة حرب عنيفة بين أخ وأخيه، ذلك أنَّ إخوة أربعة كانوا يتنازعون على حُكْم (شرافة) مكَّة (المكرمة).

---

(٦٢) ينقل بادجر عن بيرتون قوله إنه من المستحيل تحديد الطريق الذي سلكه ڤارتيما لعدة أسباب، أولها أننا متأكدون أنه لا يوجد بحر من الرمال بين المدينة ومكة، وربما حدث خلط، وأن المقصود هو ما بين دمشق والمدينة.

(٦٣) المحفّة أو الشقدف أو الشبرية أو التختروان.

(٦٤) يقول بادجر نقلاً عن بيرتون: «إنها قصص عجيبة لا تزال تُروى عن هذه المومياوات (المحنطات) وقد أكد لي طبيب عربي أنه قام بكسر رجل دجاجة ثم ربطها ربطًا محكمًا بقماشة تضم لحمًا مجففًا من جثة. وقد أدى هذا إلى أن أصبح الطائر (الدجاجة) يستطيع المشي في اليوم التالي بساق سليمة، ونظرًا لغرابة ذلك نورد هنا نص ما ذكره بيرتون (نقلاً عن بادجر): "Wonderful tales are still told about these same mummies. I was told by an Arabian Physician that he had broken a fowl's leg and bound it rightly with a cloth containing man's flesh, which caused the bird to walk about with a sound shank, on the second day."

(٦٥) يذكر بادجر ما ننقله مترجمًا كالتالي: استنتج بيرتون أن ڤارتيما كان يصف جانبًا من الطريق بين المدينة ومكة، وافترض أن المقصود هنا هو جبل وركان Warkan على طريق البحر إلى مكة. إلا أنني أفضل أن يكون المقصود هنا هو تلك الجبال القريبة من الحجر التي تعتبر رغم بعدها عن جبل سيناء امتدادًا له. وقد تأكدت من هذا الاستنتاج من خلال حديث ڤارتيما ذي الطابع الخيالي عن الخرائب القديمة الموجودة هناك (بادجر).

فصـل
عن مكة (المكرمة) ولِمَ يقصدها المسلمون. . . ؟

سنتحدث الآن عن مكة ذات الشرف الباهر. ما هي؟ . . . وما وضعها؟ . . . ومن يحكمها؟ إنها مدينة رائعة الجمال وحسنة البناء، ومأهولة جدًّا، فهي تضم حوالي ٦٠٠٠ أسرة، ومنازل مكة جيِّدة تمامًا، كمنازلنا (قد يقصد منازل إيطاليا، أو منازل أوربا بشكل عام، أو منازل البرتغال). وتوجد منازل يساوي الواحد منها ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف دوكات. ولا يحيط بمكة سور وعلى مسافة ربع ميل من مكة وجدنا جبلاً قد شَقَّ العمالُ فيه طريقًا، وعندئذ انحدرنا إلى السهل. وتمثل الجبال أسوارًا لمكة (المكرمة)، ويوجد من خلالها أربعة مداخل. وحاكم مكة سلطان (يقصد شريف) من سلالة محمد (ﷺ) هو أحد إخوة أربعة، وهو تابع للسلطان الأكبر في القاهرة. وإخْوَةُ سلطان (شريف) مكة الثلاثة في حالة حرب دائمة معه.[٦٦] لقد دخلنا مكة (المكرمة) في الثالث عشر من شهر مايو، وكان دخولنا إياها من ناحية الشمال، وبعد دخولنا مباشرة وجدنا أنفسنا نَتَحَدَّر إلى السهل، ويوجد إلى الناحية الجنوبية من مكة جبلان، يكاد أحدهما يُلامس الآخر، حيث يشقهما ممر يُفْضِي إلى بوابة مكة. وإلى جهة مشرق الشمس، يُوجد ممر جبلي آخر كأنه واد يَمُرُّ عَبْرَهُ الطريق المؤدي إلى الجبل الذي يُحْيي فيه المسلمون ذكرى تضحية إبراهيم وإسحق (عليهما السلام)[٦٧] ويبعد هذا الجبل عن مكة ما بين ثمانية أميال وعشرة أميال ويبلغ ارتفاعه مَرْمَى حجرين أو ثلاثة بِرَمْي اليد. وهذا الجبل ليس رخاميًّا، وإنما من بعض أنواع الأحجار، ولكن لونه مختلف، وعلى قمته يوجد مسجد ذو ثلاثة أبواب. وعند سفح هذا الجبل توجد مستودعات ماء (برك صناعية reservoirs) غاية في الجمال، إحداهما للقوافل القادمة من القاهرة، والأخرى للقوافل القادمة من دمشق، والمياه المتجمعة في هذه البرك مصدرها الأمطار، وتصل إلى هنا من مسافات بعيدة. والآن دعنا نعد لحديث مكة (المكرمة)، فسأتحدث في الوقت المناسب عن التضحية (يَقْصد ذبح الأضاحي)[٦٨] عند سفح هذا الجبل.

---

(٦٦) بوفاة هزَّاع بن محمد بن بركات الذي شارك أخاه بركات الثاني شرافة مكة في ١٥ رجب ٩٠٧هـ تولى شرافة مكة أحمد الجازاني (وهو ابن آخر لمحمد بن بركات). وفي أوائل شعبان سنة ٩٠٧هـ وصل بركات بجيشه إلى مكة فلم يقاومه أحمد الجازاني وفرَّ هاربًا، وقام بركات بالانتقام ممَّن أيَّدوا أخاه أحمد. . . وما كاد يستقر الأمر لبركات حتى علم أن أخاه أحمد يجهز لمقاتلته في ينبع فخرج للقائه في أواخر ذي الحجة ٩٠٧هـ فهزمه، إلا أنه بَلَغَه أن أخاه سيواصل القتال، وكان بركات مريضًا فغادر مكة إلى طريق اليمن وترك أخاه أحمد يدخلها، وقد استطاع بركات بعد ذلك أن يدخل مكة في ١١ رمضان ٩٠٨هـ، ولكن أحمد عاد للشرافة مرة أخرى ثم قُتِلَ في المطاف في رجب ٩٠٩هـ. . . ثم يستمر مسلسل الفساد. . . والمهم هنا أن رواية قارتيما صحيحة. أحمد السباعي، *تاريخ مكة*، ط٢ (مكة: نادي مكة الثقافي، ١٣٩٩هـ)، ص ص ٣٠٨ ـ ٣١٤.

(٦٧) المسلمون يذبحون هديهم في منى وليس في عرفات.

(٦٨) ما بين الأقواس إضافة من المترجم.

وعندما دخلنا مكة، وجدنا قافلة الحجيج القادمة من القاهرة التي كانت قد وصلت قبل قافلتنا بثمانية أيام. ولم تسلك هذه القافلة الطريق نفسه الذي سلكناه، وكان يوجد ضمنها ٦٤٠٠٠ جمل ومائة من المماليك. (ويورد ڤارتيما هنا جملة قبيحة مفادها أن غضب الله — أستغفر الله — قد حلَّ بمكة، لأن المنطقة المحيطة بها لا تنبت عشبًا ولا شجرًا ولا أي شيء آخر. والواقع أن هذا ليس غضبًا من الله، بل لقد حلَّ عليها رضوان الله وبركته، فهذا الجَدْب الظاهري مَنَعَ عنها الاستعمار الأجنبي، ثم إن أفئدة من الناس تهوي إليها رغم هذا الجَدْب، وقد رزق الله سبحانه أهلها من الثمرات . . .).[٦٩] ويُعاني أهل مكة من نقص كبير في المياه، فإذا أراد واحد منهم أن يشرب كمية المياه التي تكفيه وتروي ظمأه، فإن ذلك يكلفه أكثر من أربع كاترينات quattrini في اليوم الواحد. وسأحدثكم عن طريقة حياة أهل مكة: إن جانبًا كبيرًا من مؤنهم يأتيهم من القاهرة عَبْر البحر الأحمر، إذ يوجد ميناء جدة على بعد أربعين ميلاً، وعن طريق هذا الميناء ترد هذه المؤن، كما تَرد لمكة كميات كبيرة من هذه المؤن من بلاد العرب السعيدة بالإضافة إلى كميات كبيرة من أثيوبيا. وقد وجدنا أعدادًا كبيرة من الحجاج في مكة، أتى بعضهم من أثيوبيا، وأتى بعضهم من الهند الكبرى India Major وأتى بعضهم الآخر من الهند الصغرى، وآخرون أتوا من فارس، وسوريا. والحق أقول لكم إنني لم أر أبدًا تجمعًا هائلاً احتشد في مكان واحد، كما رأيتُ هنا في مكة خلال العشرين يومًا التي مكثتها في هذا البلد. لقد أتى بعض الناس للتجارة وأتى بعضهم للحج طمعًا في غفران ذنوبهم.

فصل
عن البضائع في مكة

ترد لمكة من الهند الكبرى كميات كبيرة من الجواهر، وكل أنواع البهارات، ويأتي جانب من البهارات من أثيوبيا، ويرد جانب آخر من البنغال Bengchella، وكذلك كميات كبيرة من الأقمشة القطنية والحريرية. فَعَبْرَ مكة يتم مرور سلع كثيرة من المجوهرات والبهارات بأنواعها المختلفة، وكذلك من القطن والشمع والمواد العطرية، بكميات كبيرة.

فصل
عن طلب الغفران في مكة المكرمة

دعونا الآن نعد إلى الغفران الذي يبتغيه الحجاج القادمون إلى مكة (المكرمة)، ففي وسط مكة يوجد معبد (يقصد مسجد) جميل جدًّا يشبه الكوليزيوم في روما Colloseum of Rome إلا أنه غير مشيد مثله بحجارة ضخمة، وإنما من طوب أحمر، وله تسعون بابًا أو مائة باب في كل جهاته، ذوات أقواس معقودة arched. وعند الدخول إلى هذا المعبد (يقصد المسجد)، يهبط المرء عشر درجات أو اثنتي عشرة درجة من الرخام،

---

(٦٩) ما بين الأقواس إضافة من المترجم.

وعند المدخل المذكور يجلس الرجال يبيعون الجواهر، ولا شيء غيرها. وعندما تنزل الدرجات المذكورة، تجد كل أنحاء هذا المسجد، وكل شيء — حتى الجدران — مُغَطًّى بالذهب.(٧٠) وتحت أقواس المسجد جلس حوالي ٤,٠٠٠ أو ٥,٠٠٠ إنسان، رجالاً ونساءً، يبيعون مختلف أنواع المواد العطرية، غالبها مساحيق لحفظ الأبدان وإنعاشها، لأن الوثنيين (يقصد المسلمين) يأتون إلى هنا من مختلف أنحاء العالم. والحق أقول لكم إنه من الصعب أن أصف لكم روْعَة الروائح التي شَمَمْتُها في هذا المعبد (يقصد المسجد). إنها تظهر كرائحة مُشَبَّعة بالمسك، زاخرة بأكثر العطور إنعاشًا وإبهاجًا. وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو تبدأ احتفالات الغفران في المسجد الحرام (ليس في الإسلام عيد بهذا الاسم، وإنما قارتيما يُسْقِط ثقافته النصرانية على ما يراه، أو يُقَرِّبُ المعنى إلى قرائه الأوربيين.) ويوجد داخل المعبد (المسجد) برج tower (يقصد الكعبة المشرفة)، تبلغ أطوال كل من أضلاعه خمس أو ست خطوات، وقد غُطِّي هذا المبنى بالحرير الأسود، وبه باب من الفضة الخالصة بارتفاع قامة الإنسان، عن طريقه يمكن الدخول لهذا البرج (الكعبة المشرفة) ويوجد على كِلَا جانبي هذا الباب جَرَّة، يقولون إنها مليئة بالبلسم. ويُشَاهد هذا البلسم في عيد الحصاد day of pentecost.(٧١) ويقولون إن هذا البلسم جزء من كنوز السلطان. وعند كل ركن من أركان البرج (الكعبة المشرفة) توجد حلقة كبيرة. وفي الرابع والعشرين من شهر مايو يبدأ كل الناس قبل طلوع النهار في الطواف سبعة أشواط حول الكعبة، وهم في هذه الأثناء يَتَمَسَّون بأركان الكعبة ويُقَبِّلونها. وعلى بعد عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة من البرج (الكعبة المشرفة) يوجد برج آخر يشبه إحدى مُصَلَّاتِ كنائسنا أو كَاتِدْرائيَّاتنا chapel، ذو ثلاثة أبواب أو أربعة، داخله بئر رائعة، يبلغ سبعة فاذومات fathom عمقًا،(٧٢) وماؤها مالح قليلاً. وعند هذه البئر، يقف ستة رجال أو ثمانية لسحب الماء للناس. وعندما ينتهي الناس من الطواف سبعة أشواط حول الكعبة يأتون هذه البئر، ويولونها ظهورهم ويقولون: «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم اغفر لنا» ويقوم أولئك الذين يسحبون الماء من البئر بصب ثلاثة جَرادِل bucketsful على كل شخص من الحجاج، لتغمره من أعلى الرأس إلى أخمص القدم، فيستحم الجميع بهذه الطريقة، حتى الذين ثيابهم من حرير. ويقولون إنهم بهذه الوسيلة يتخلصون من خطاياهم التي تَبْقَى في هذا الموضع بعد الاستحمام. ويقولون إن البرج (الكعبة المشرفة) الذي طافوا به عند قدومهم هو أول بيت وُضع للناس، وإن إبراهيم الخليل هو بَانِيه. وبعد أن استحم الجميعُ بهذه الطريقة، توجهوا إلى الوادي عند الجبل الذي سبق أن تحدثنا عنه حيث يمكثون هناك يومين وليلة، ويشرعون في الذبح (يقصد ذبح الأضاحي) عندما يكونون عند سفح هذا الجبل.

---

(٧٠) نظن أن هناك خللاً في العبارة.

(٧١) هذا العيد Pentecostعيد يهودي أو عيد الخمسين عند النصارى، ولا علاقة للمسلمين بذلك.

(٧٢) الفازوم (أو القامة) مقياس لعمق المياه، يساوي ستة أقدام.

فصـل
الهَدْي والأضاحي بمكة

إن الأحداث الجديدة والغريبة، قادرة على أن تجعل كل عقل نبيل مستعدًا للتفتح والفهم، كما أنها — أي الوقائع الجديدة — تحثه على القيام بالأعمال الجليلة. ولهذا السبب، ولكي أُرضي كثيرًا من هذه النزعات، فسأذكر بإيجاز ما يراعيه المسلمون عند تقديم أضحياتهم. فما من رجل أو امرأة إلَّا وينحر رأسين أو ثلاثة على الأقل، بل إن بعضهم ينحر أربعة، وبعضهم الآخر ينحر ستة، حتى أنني أعتقد صادقًا أنه تمَّ ذبح أكثر من ٣٠,٠٠٠ رأس من الغنم في اليوم الأول، بعد أن وُلِّيت وجوهها صَوب المشرق، ويُقَدِّم كل ناحر ما نحره إلى الفقراء، حبًّا في الله وتقربًا إليه، إذ يوجد حوالي ٣٠,٠٠٠ فقير هناك. سرعان ما حَفَرَت جماعات منهم حفرًا كبيرة جدًّا، ووضعوا بها روث الجمال، وأشعلوا فيه نيرانًا صغيرة، وراحوا يشوُون قِطَعَ اللحم الصغيرة ويأكلونها. ورأيي الذي أعتقد صدقه أن قدوم هؤلاء الفقراء إلى هذا المكان، كان رغبة في التخلص من الجوع أكثر من رغبتهم في غفران الله، والدليل على صحة ذلك هو أنه كان لدينا كمية كبيرة من القِثاء الواردة من بلاد العرب السعيدة (يقصد اليمن)، وقد أكلنا الكمية كلها خلا القِشْرَ، الذي ألقيناه خارج الخيمة، فتجمع حوالي أربعين أو خمسين من هؤلاء الفقراء أمام الخيمة، وراحوا يَتَكَالَبُون على قُشُـور القِثَّـاء المَـلْآى بالرمال. وبذا بدا لنا أنهم قَدِمُوا لإسكات جُوع بطونهم أكثر من قدومهم لمحو خطاياهم. وفي اليوم الثاني أقبل أحد عُلَمَائهم، وهو يماثل أحد كهنتنا، وصعد إلى قمة الجبل المشار إليه، وخطب في الناس خطبة استغرقت حوالي الساعة، وكان يُصْدر نوعًا من النواح، ويُحث الناس للبكاء على خطاياهم، وقال لهم بصوت جوهري: «آه. . . إن إبراهيم هو حبيب الرحمن وخليله» ثم استطرد قائلاً: «إن إسحاق قد اختاره الله سبحانه، وقد دعا الله سبحانه لهداية شعب النبي.» وبعد قوله هذا تعالى الهياج والصراخ، وعندما أنهى الخطيب خطبته أسرعت القافلة كلها صوب مكة، لأنه على بعد ستة أميال كان هناك أكثر من ٢٠,٠٠٠ بدوي يريدون سلب القافلة، وقد وصلنا للدفاع عن مكة، إلَّا أنه عند وصولنا لمنتصف الطريق — بين مكة وموضع النحر — وجدنا جدارًا صغيرًا يبلغ ارتفاعه أربعة فاذومات (قامات)، وتوجد تحت هذا الجدار كمية كبيرة من الأحجار الصغيرة، وهي أحجار قَذَفَ بها الحجاج الذين مرُّوا بهذا الجـدار، للأسباب التي سأذكرها لكم في السطور التالية. فهم يقولون إنه عندما أمر الله إبراهيم عليه السـلام بذبح ابنه إسحاق، وذهب إبراهيم ليبحث عن ابنه، وطلب من ابنه أن يتبعه، لأنه كان من الضروري أن ينفذ إبراهيم أمر ربه، فأجابه الابن قائلاً: «يا أبتِ افعل ما تؤمر.» وعندما وصل إسحاق (التفاسير القرآنية تؤكد أن الذبيحَ هو إسماعيل عليه السلام) عند موضع الجدار المشار إليه آنفًا ظهر له الشيطان في صورة واحد من أصدقائه (الرواية الإسلامية تذكر أن الشيطان ظهر لإبراهيم الخليل نفسه) وقال له: «أين أنت ذاهب يا صديقي إسحاق؟» فقال له: «إني ذاهب إلى أبي فهو في انتظاري.» فقال له الشيطان: «لا تذهب يا بني، فأبوك سيذبحك قربانًا لربه.» فأجاب إسحاق: «دع أبي يفعل ما دامت هذه هي إرادة الله.» وعندئذ اختفى الشيطان، وبعد مسافة أبعد قليلاً، ظهر له في صورة صديق حميم آخر،

وكرر على مسامعه الكلمات نفسها، فأجاب إسحاق غاضبًا: «دعه يفعل.» وتناول حجرًا قذف به وجه الشيطان، ولهذا السبب فإن الحجيج عندما يصلون للمكان نفسه يقذفون حجرًا على هذا الجدار، ثم يذهبون لمكة. وقد وجدنا في طريق مكة ١٥,٠٠٠ أو ٢٠,٠٠٠ حمامة، يقولون إنها من سلالة الحمامة التي تحدثت إلى محمد (ﷺ) وكانت في حقيقتها هي الروح القدس. ويطير الحمام في كل أنحاء مكة، ويَسْعَد الجميع بذلك. ولا يملك أصحاب الحوانيت الذين يبيعون الحبوب والذرة الرفيعة والأرز وسائر الخضروات، قَتْلَ هذا الحمام أو ذبحه أو الإمساك به. وإذا حدث أنَّ واحدًا منهم ضرب هذه الحمامات، فإن الرعب يملؤه خوفًا من خراب البلد. ويجب أن تعلم أن هذا الحمام يُلْحِقُ ضررًا كبيرًا داخل المسجد الحرام.

فصل

وحيد القرن Unicorn في المسجد الحرام، وهو حيوان نادر الوجود

في موضع آخر من المعبد (يقصد المسجد) ثمَّ مكان فسيح يوجد به اثنان من حيوان وحيد القرن[٧٣] على قيد الحياة، ويبدوان ككائنات عجيبة تلفت النظر، وإنهما لكذلك يقينًا. وسَأُحْدِثُ لك من وَصْفِهَا ذكرا. أما أكبرهما فيبدو كمهر يبلغ من العمر ثلاثين شهرًا، له في جبهته قرن يبلغ طوله ثلاث براشيات، وأما الآخر فيشبه مهرًا يبلغ من العمر عامًا، ويبلغ طول قرنه حوالي أربعة بالميات (وحدة قياس).[٧٤] ويشبه لونهما لون الحصان الكُمَيْت الداكن؛ أما رأساهما فتشبهان رأس الأيل. وليس لهذا الحيوان رقبة طويلة، وله بعض الشعر المتفرق القصير على أحد جانبيه، وأرجله نحيلة عجفاء كأرجل الماعز، وفي أقدامه (ربما يقصد أظلافه) شقوق من نواحيها الأمامية، وهي تشبه أقدام الماعز، ويوجد بعض الشعر في الجوانب الخلفية لسيقانه. وحقيقة الأمر أن هذا الحيوان المَسْخ يتحتم أن يكون شرسًا وانعزاليًا. وكان هذان الحيوانان وحيدا القرن قد أهديا إلى سلطان مكة (يقصد شريف مكة)، باعتبارهما من أطرف ما في العالم وأجمله في أيامنا هذه، مِن قِبَل ملك أثيوبيا، رغبة من هذا الأخير في التحالف معه.

فصل

ذكر بعض الحوادث في الطريق من مكة إلى ميناء جدة

يجب أن أبين هنا كيف يُظهر العقل فطنته في ظروف بعينها. لقد أصبح ضروريًا أن أُعْمِلَ فكري للهرب من قافلة مكة، فعندما كنت ذاهبًا لاستبضاع بعض الأشياء لرئيس القافلة تعرف عليَّ أحد المسلمين Moor (يستخدم قارتيا هذا اللفظ للدلالة على المسلمين وليس المقصود هنا أحد المغاربة) إذ تفرَّس في وجهي،

---

(٧٣) يذكر بادجر أن بيرتون يرى أن هذه الحيوانات هي الأبقار الوحشية.

(٧٤) يذكر بادجر أنه ربما كان مقياسًا بندقيًا.

وقال: «أنت من أي البلاد؟ . . .» فأجبته: «إني مسلم I am Moor» فقال: «أنت كذاب.» فقلت له: «وراس النبي، أنا مسلم» فقال لي: «تعالى معي إلى المنزل،» فذهبت معه. وعندما ذهبت لمنزله تحدث إليَّ بالإيطالية، وأخبرني بالبلاد التي أتيت منها، وأنه يعلم أنني لستُ مسلمًا، وأخبرني أنه في وقت سابق كان في جنوة Genoa والبندقية Venice، ووصفهما لي ليُدلِّل على صدقه، وعندما سمعتُ ذلك أخبرتُه أنني إيطالي Roman وأنني أصبحت مملوكًا في القاهرة. وعندما سمع ذلك سُرَّ له كثيرًا وراح يعاملني باحترام واعتزاز كبيرين. ولأن قصدي كان هو الوصول لهذه النتيجة، فقد رُحْتُ أستدرجه قائلاً ما إذا كانت هذه هي مكة ذات الصيت الذائع عبر العالم كله، فأين الجواهر؟ وأين البهارات؟، وأين مختلف أنواع البضائع التي قِيلَ إنها تتخذ سبيلها إلى هذا المكان. لقد ألقيت عليه هذا السؤال فقط عساهُ يُخبرني لِمَ لمْ تعُد هذه البضائع والأشياء تصل إلى هنا كما جرت العادة قبل ذلك. ولم أشأ أن أسأله ما إذا كان ملك البرتغال هو السبب،(٧٥) فقد كان الملك البرتغالي هو سيد المحيط، وسيد الخلجان العربية والفارسية. وعندئذ بدأ يخبرني بالتدريج عن سبب عدم وصول البضائع التي سبق أن أشرت إليها مثلما كانت تصل من قبل. وعندما أخبرني أن الملك البرتغالي هو السبب تظاهرت بالحزن العميق، وأسلْتُ فيضًا من السِّباب لهذا الملك، مخافة أن يكتشف سعادتي لنجاح النصارى في إتمام هذه الرحلة (حول رأس الرجاء الصالح)، وعندما وجد أنني أظهرت عداءً للنصارى، أبدى نحوي مزيدًا من الاحترام والاعتزاز، وراح يُخبرني بكل شيء بالتفصيل. وعندما حَصَّلتُ من المعلومات ما فيه الكفاية، قلت له: «صديقي. . . إنني أتوسل إليك، وأتمنى عليك بجاه النبي أن تدلني على طريقة للهرب من القافلة لأن غرضي هو الوصول إلى أولئك الذين يعادون النصارى، فإنني أوكد لك أنهم لو عرفوا قدراتي لأرسلوا بحثًا عني حتى في مكة.» فسألني بحق نبينا محمد: «ماذا يمكنك أن تصنع؟» فأجبته بأنني أمهر صانع للمدافع الضخمة large mortars في العالم. وعند سماعه لذلك قال: «إن محمدًا ﷺ يستحق الشكر لأنه أرسل لنا مثل هذا الرجل لخدمة المسلمين وإرضاء الله سبحانه.» ولذلك فقد أخفاني في منزله، وتركني مع زوجته، وتوسَّل إليَّ أن أحُثَّ رئيس قافلتنا على أن يُخْرِجَ من مكة خمسة عشر بعيرًا محملة بالبهارات، وذلك حتى لا يدفع ثلاثين أشرفيًّا Seraphim للسلطان (يقصد الشريف) كضريبة، فأجبته أنه إذا ما أخفاني في هذا المنزل، فإنني سأمكنه من تحميل مائة بعير إذا كان لديه مثل هذا العدد، لأن للمماليك مثل هذا الامتياز. وعندما سمع مني ذلك كان في الغاية من السعادة. وبعد ذلك ناقشني في الطريقة التي يجب أن أتدبر بها أمري، ووجهني إلى أحد ملوك الهند الكبرى المهمين، وهو ملك الدكن King of Deccan، وسوف أتحدث عن هذا الملك في الوقت المناسب في هذه الرحلات. وقبل رحيل القافلة بيوم خَبَّأني في منزله بموضِع سرِّي، وفي اليوم التالي قبل انبثاق نور النهار بساعتين، كان ثَمَّ نفير وأبواق صاخبة خلال مكة، وذلك وفقًا للعادة المتبعة، وكان ثَمَّ إعلان بأن على كل المماليك،

---

(٧٥) يذكر بادجر أنه ورد في *قرة العيون* عن تاريخ اليمن أن البرتغاليين حاصروا سبع سفن عربية بين الهند والخليج الفارسي (العربي) وقتلوا ركابها قبل زيارة ڤارتيما لمكة.

حتى ولـو كانـوا على وشك الموت أن يَمْتَطُوا صَهَوَات جيادهم ليبدأوا رحلة العودة إلى سوريا. وعندئذ حاصرت المخاوف قلبي بشدة وأثَرْتُ الشفقة على نفسي بدموعي التي سَكَبْتُها أمام زوجة هذا التاجر، وتضرعت إلى الله أن ينقذني من هذا البلاء. وفي صبيحة يوم الثلاثاء، رحلت القافلة المذكورة، وتركني التاجر مع زوجته في منزله، ورافق القافلة بعد أن أخبر زوجته أن تُرْسلني — يوم الجمعة التالي — بصحبة قافلة الهند المتوجهة إلى جدة التي تعتبر ميناء مكة، وتبعد عنها مسافة أربعين ميلاً. ولا أستطيع أن أُعبِّر عن الرقة التي شملتني بها هذه السيدة، والتي شملتني بها ابنة أختها ذات الخمسة عشر ربيعًا، فقد وعدتاني بأن تجعلا مني رجلاً ثريًّا إذا بقيتُ ولم أرحل، لكنني تنازلتُ عن كل هذه العروض لصالح الخطر التالي. وحين حلَّ يوم الجمعـة، خرجت مع القافلة ظهرًا دون أدنى أسف لمفارقة المرأتين اللتين راحتا تنشجان حُزْنًا لفراقي. وفي منتصف الليل وصلنا إلى إحدى المدن، ومكثنا بها طوال الليل وحتى ظهر اليوم التالي. وفي يوم السبت شرعنا في المسير، وظللنا في ترحال دائم حتى منتصف الليل، ثم دخلنا ميناء جدة.

فصـل
جدة، ميناء مكة والبحر الأحمر

لا يُحيطُ جدة[٧٦] سور، ومنازلها في غاية الجمال، كمنازلنا المعتادة، لذا لن نغْرق كثيرًا في وصفها. إنها مدينة ذات حركة تجارية نشيطة جدًّا، لأن عددًا كبيرًا من المسلمين (عبَّر قارتيما عنهم بالوثنيين pagans) يأتون إليهـا، ولا يُسْمـح بقـدوم النصـارى واليهـود إليهـا. وعنـدمـا وصلتُ إلى جدة، دخلتُ بسرعـة مسجـدًا كان به ٢٥,٠٠٠ فقير على الأقل، وانزويت في أحد أركانه، ومكثتُ به أربعة عشر يومًا، وكنتُ أمكثُ طوال النهار منطرحًا فوق الأرض، مُتَدَثِّرًا بثيابي، تَصْدُرُ عنِّي أنَّات دائمة لأني كُنْتُ أُعاني من آلام شديدة في معدتي وبدني. وقد سأل التجار: «من الذي يَئِنُّ هكذا؟» فأجابهم الفقراء الذين كانوا إلى جواري: «إنه مسلم فقـير يحتضر.» وفي كل ليلة كُنْتُ أنسلُّ خارجًا من المسجد لشراء الطعام. وأترك الأمر لتقديرك لتحكم ما إذا كانت لديَّ شهية كافية أم لا، فقد كنت لا أتناول الطعام إلَّا مرة واحدة في اليوم، وكان طعامًا رديئًا. وجدة تتبع سلطان مصر، ويحكمها بركات، أخو شريف مكة، وهو تابع للسلطان الكبير في القاهرة. ولا تُنْبِتُ الأرض شيئًا، وثمة ندرة شديدة في المياه العذبة، ويلْطم البحر جُدْران المنازل. وكل أنـواع الضروريات متوافر هنا، إلَّا أنها تجلب من القاهرة، وبلاد العرب السعيدة (اليمن) ومن أماكن أخرى. وفي جدة يوجد دائمًا عدد كبير من المرضى لرداءة الهواء، وتضم جدة حوالي ٥٠٠ أسرة. وفي نهاية اليوم الرابع عشر، اتفقت مع ربان سفينة، كانت مبحرة إلى فارس، وكان في جدة حوالي مائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة. وبعد ثلاثة أيام غادرت سفينتنا مُبْحِرة في البحر الأحمر.

---

(٧٦) كتبها قارتيما Zida ويرى بادجر أن جدة بالفتح أصح.

فصـل
لماذا البحر الأحمر غير صالح للملاحة؟

يجب أن يكون مفهومًا أن هذا البحر ليس أحمر، فمياهه كمياه أي بحر آخر. وقد أبحرنا فيه طوال النهار وحتى مغيب الشمس، فالإبحار فيه ليلاً غير ممكن. وكان هذا دأبُنَا، نُبْحِر نهارًا، ونرسو ليلاً، حتى وصلنا لجزيرة كمران.(٧٧) وبعد هذه الجزيرة يمكنك الإبحار بأمان. أما السبب الذي جعل الإبحار غير ممكن ليلاً فهو وجود عدد كبير من الجزر والصخور. ومن الضروري أن يكون — دائمًا — في أعلى الصاري رجل يَسْتَطْلِعُ الطريق، وهو أمر لا يمكن تحقيقه ليلاً، لذا فقد كان بإمكانهم الإبحار نهارًا فقط.

. . . . . (ثم يمضي ڤارتيما في إكـمال رحلتـه إلى جنـوب الجزيرة العربية، فبلاد فارس والخليج العربي، فالهند. . . إلخ مما يخرج عن نطاق هذا البحث.)

---

(٧٧) بين عدن وجزيرة فرسان.

Ludovico di Varthema, the Egyptian Hadji Jonah (Younos): The Italian Traveller and the Portuguese Spy, and His Travels to the Islamic Holy Places

Abd Al-Rahman A. Al-Shaikh
Associate Professor, History Department, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Ludovico di Varthema, the Italian by birth, performed a famous travel (1503-1508) to some Arabic countries, Persia, India, East Asia, and then returned to Lisbon, thence to Rome. In his returning journey he touched the East African coast, and the Cape of Good Hope. There are many evidences showing that he was, during his travel, a Portuguese spy.

This research stresses his travel to the Islamic holy places, which he reached in 1503, as an Egyptian Mamluk, called al Hadj Jonah (Younos). I also stress the historical circumstances in European countries in the Mediterranean Sea basin which influenced Varthema's ideas. This research adds some new historical analysis because I referred to all Varthema's travel to Arab countries and other countries, and also I referred to European historical references touching Varthema's period.